د. عبد الكريم عائض الشهراني

نحن وهم والقدر

رواية



نحن وهم والقدر

رواية

عبدالكريم عائض الشهراني 1427هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشهراني، عبدالكريم عائض

نحن وهم والقدر. / عبدالكريم عائض سعيد – الدمام 1427 هـ

..ص ، .. سم
ردمك: 9960-9790-7-5

1 – القصص العربية – السعودية أ، العنوان

ديوي 813,039531 6046 / 1427

رقم الإيداع 6046 / 1427
ردمك: 9960-9790-7-5

نحن وهم والقدر

رواية

د. عبدالكريم عائض الشهراني
Dr.krim@hotmail.com

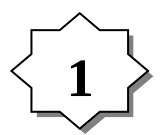
الطبعة الأولى
1428هـ - 2007

لوحة الغلاف
لصاحب السمو الملكي

الأمير خالد الفيصل

الإهداء

إلى كل حر يبحث عن حقيقة والسلام
في مشارق الأرض ومغاربها
أهدي هذه الرواية



في شاطئ شبه جزيرة مفقودة، اتخذت من الخليج التايلاندي منفذا إلى عالم مائي لا نهاية له إلا أفق بعيد يهيمن عليها بهيبته وكبريائه وغطرسته، نزل الكيميائي العربي اللامع الدكتور أنور زكريا›› وشقيقته الطبيبة ‹‹نهاد›› في عزلة مخيفة من العالم.

كانا قد وطآ نفسيهما على العيش المرير فيها بعد أن فرضته عليهما عصابة اتخذت من صنع المخدرات نشاطاً عالميا، فقد أخذا على غرة بعقد خادع حرك فيهما كوامن الطمع المادي فانتزعهما من بلدهما بلد ‹‹مصر›› بلد العلم والمعرفة والحضارة والعيش الرغيد.

كان ‹‹أنور›› عالماً كيميائياً قدّم له بلده الكثير، لكنه يعتقد جازماً أن أهل بلده لم يمكنوه من رد الجميل لهذا البلد الخيّر.

كان يتهيأ لـ‹‹أنور›› أنه لم يجد في بلده المكانة التي يستحقها والفرصة التي يمكنه أن يثبت عبقريته الكيميائية.

كل هذه المشاعر السلبية جعلت عقد العمل الذي قدمه له رجل أعمال أجنبي فرصة عظيمة لتحقيق أحلامه التي طالما نسجها في خياله.

في أحد الأيام استدعاه رجل أعمال أجنبي في الفندق الذي ينزله على ضفاف النيل، وأقنعه بأنه واحد من أهم رجالات الأعمال الأغنياء الذين يبحثون عن التميّز في مجال الأبحاث الكيميائية

لتطوير المستحضرات الطبية التي أنفق عليها الكثير من المال والجهد وشيّد من أجلها أحد أضخم المصانع في شرق آسيا.

وقد كان العقد الذي قدمه مغرياً جدا وقد استطاع هذا العقد الذي طرحه ذلك الثري والشيك الذي رافقه أن يلغي كل هواجس الاستخارة أو الاستشارة، وقد كان حبه لأخته الطبيبة ‹‹نهاد›› التي تصغره بخمسة أعوام والخريجة حديثاً من ‹‹جامعة القاهرة›› جعله يطرح فكرة إبرام عقد آخر لها كطبيبة متدربة في المصنع الذي سيعمل فيه، وقد قوبل طلبه بالترحيب الحار فكان لها عقد آخر سال له لعابها هي الأخرى.

طارا إلى بلاد الشرق الأقصى، وما أدراك ما بلاد الشرق، بلاد الأعاجيب والتاريخ والتراث والأساطير.

وصلا إلى دولة (تايلاند) مساءَ حيث هبطا في مطار دولي قيل لهما بأن اسمه مطار (ساموي الدولي) فاستقبلهما اثنان من أهل البلاد عرفا منهما كلمتين انجليزيتين فقط هما (Welcome & Good evening) وبعد إكمال إجراءات الدخول استقلا سيارة فارهة أخذتهما إلى أحد المرافئ التي ترتص فيها المراكب وقد تملّكهما شعور بالخوف والرهبة من المجهول، فالذين يرافقونهما لا يملكون أي كلمة مفهومة يمكن أن تطمئنهما، ومما زاد توترهما ابتساماتهم البلهاء التي لم تفارق محياهم.

شق المركب الذي استقلاه عباب البحر وكانت الأمواج تلك الليلة عاتية زادت من خوفهما، لاسيما أنهما لم يسبق لهما أن ركبا البحر في حياتهما من قبل وما استقلا مركبا في طفولتهما إلا مرة أو مرتين فوق نهر النيل.

وبعد مضي ساعة في عرض البحر رأوا أنوار مركب مقبل من بعيد وهو يبادل مركبهم إشارات ضوئية، استغرب زكريا من هذا السلوك لكنه لا يملك لغة يستفسر بها عنه، ولم يجدا من مرافقيهم أي قبول للتفاهم حتى بالإشارة.

توقف مركبهم مكانه حتى وصل المركب الآخر، فأمروا بالانتقال إليه وكانت نظرات الشك ظاهرة على محيا ‹‹أنور›› وأخته، لكن ما الذي يمكنهما أن يصنعا؟

وصل المركب بعد ساعتين من الخوف والترقب إلى مرفأ خاص فنزلوا منه، وكان في استقبالهم شاحنة من طراز ‹‹ميتسوبيشي›› فركبا في القمرة مع السائق بينما استقل اثنان آخران الصندوق وما زال الصمت والظلام في الطرق التي يسلكونها سيدا الموقف، وما هي إلى دقائق حتى توغلوا في غابات وشعاب مظلمة وجبال مخيفة، وبعد مضي ساعة وصلوا إلى بوابة على سور عظيم ففتحت لهم البوابة التي كانت تخضع لحراسة مشددة وجيش من الحرس وإجراءات دخول معقدة، وما إن توغلوا في الداخل حتى بدا لهم قصر ضخم وفللاً جميلة وفيها كان المقر.

أدخلا في فلة صغيرة توفرت فيها كل أساليب الضيافة الراقية والرفاهية المتناهية وكأنهم في فندق من عشرة نجوم.

كان التعب قد أنهكهما، فالرحلة الجوية كانت طويلة ومتعبة جدا، أما الرحلة البحرية فكانت أكثر مشقة وخوفاً.

ألقيا بجسديهما المنهكين على الأسرة الوثيرة بعدما تناولا شيئاً من الطعام الذي أحضراه معهما، أما الطعام والفاكهة التي وجداها في المكان فكانت غريبة لم يتعودا عليها بعد، ورغم الخوف والتوتر إلا أنهما غطا في سبات عميق.

في صباح اليوم التالي وفي تمام الساعة الثامنة بالضبط رن جرس الهاتف بجانب سرير ‹‹أنور›› فردّ على المتصل فإذا بصوت امرأة هادئ رقيق تتكلم بلغة انجليزية فصحى وبلكنة شرقية تخبره بأن مدير المصنع ينتظره الساعة التاسعة في مكتبه، وسيأتيه من يصحبه إلى هناك.

تناول هو واخته وجبة الإفطار واستعدا للقاء وهما في أشد حالات التوتر.

حضر إليهما شاب متأنق بعربة جولف كهربائية أخذهما إلى مبنى صغير جميل تحفه الأشجار والنباتات المنسقة بعناية.

دخلا المبنى وأخذا إلى مكتب المدير، وبعد انتظار لم يطل طويلاً في مكتب السكرتيرة أدخلا إلى المكتب، كان خلف الطاولة الخشبية الفخمة جداً رجلاً ضخماً يكاد رغم ضخامته يغرق في أبهة مكتبه، قسمات وجهه الغربية لا تبشر بخير وبدل أن يأذن لهما بالجلوس رحب بهما بلغة انجليزية وبلكنة غربية بجفاء واضح وهما واقفين وشرح لهما في عجالة عمل ‹‹أنور›› بينما أفهمهما أن وجود الدكتورة ‹‹نهاد›› شرفيّ فقط، ولا حاجة لهم بخدماتها حيث يتوفر في المصنع أطباؤه الخاصون لكنها ستتقاضى الراتب الذي كتب لهما في العقد.

حاول الدكتور أن يستأذن للجلوس والمناقشة لكن الرجل انكبّ على ملف بين يديه وأشار إليهما بيده آمراً إياهما بالخروج وانتهاء المقابلة.

فهم الدكتور ‹‹أنور›› أن طبيعة عمله تطوير الأبحاث في مصنع الأدوية المخدرة المرخص بها.

أرغمت الدكتورة على البقاء في السكن تقلب قنوات التلفاز التي لم تعرف منها إلا القليل والناطقة بالإنجليزية، وتقرأ الكتب والمجلات التي أحضرتها معها ورغم أن الملل كان يكبس على أنفاسها إلا أن أخاها كان يسرّي عنها بعض الشيء عندما يعود آخر النهار.

ابتدأ الدكتور عمله في المصنع الضخم جداً في هذه المستعمرة التي لا يدري أين تقع من خارطة العالم، ولكن لم تمض أيام قليلة حتى بدأ الشك يسيطر عليه، فالعقاقير التي يقوم المصنع بإنتاجها لا تشبه منتجات المصانع الطبية التي يعرفها، صحيح هناك خط إنتاج لمسكنات ومهدئات طبية معروفة، لكن بدت له وكأنها غطاء لمنتجات أخرى ليس لها علاقة بالطب.

ولم يطل به الوقت طويلاً بل في آخر الأسبوع الأول طلبه مدير المصنع وأمره بالعمل على تعديل في تركيبة مخدرة لتكون أكثر تكييفا وتتمتع بمواصفات مختلفة عما ينتجونه، عندها تيقن أنه يجبر على ممارسة مهنة إجرامية قذرة فغضب ورفض العمل وطلب الاستقالة والمغادرة إلى بلاده.

استرضي مرات وهدد أخرى، لكنه لم ينصع لكل الضغوط، فصدر الأمر بنفيه إلى هذه الجزيرة النائية ليراجع نفسه وإن لم ينصع للأوامر فإنه سيلاقي مصيراً قاتماً.

ومنذ أربعة أشهر وهو يعيش مع أخته في هذه الجزيرة المهجورة حتى استطاعا أن يتعايشا مع مصيرهما هذا، وبعد يأس ممض كاد أن يقضي على ‹‹نهاد›› التي عاشت أياماً عصيبة في الشهر الأول من وصولهما رضيا بالقدر وصارا يجمعان أعشابا طبية ثمينة يقايضون بها بعض التجار الذين يأتونهما على قوارب خشبية صغيرة بحبوب وغذاء ودجاج وملابس رديئة، ورغم توسلهما المستميت للهروب معهم إلى أماكن أخرى تصلها تلك القوارب إلا أنهم كانوا يرفضون بشدة، زاعمين أن القوارب لا تستطيع أن تقلهم، ورغم الصعوبة البالغة في الاتصال اللغوي بينهم فقد فهما أن هؤلاء البسطاء يخشون سطوة العصابة التي ألقتهما في هذه الجزيرة. وربما إلى حاجتهم إلى بقائهما يجمعان لهم ما يريدون من تلك الأعشاب.

࿇࿇࿇

أما الجزيرة فهي استوائية، تكثر فيها الغابات شديدة الخضرة التي تغطي الجبال الشاهقة والأودية السحيقة.

ليس فيها من أرض رملية منبسطة بلا شجر يعلمانها إلا شريط الشاطئ الذي يتسع ويرتفع تدريجيا إلى الداخل، وتقل أشجار الغابات فيه، وقد اتخذا في طرفه القريب من جذع الجبل الشامخ كوخا صنعاه من خشب الأشجار وأوراقها اليابسة، كما أصلحا مزرعة تزيد على الفدانين تصلح لزراعة بعض الخضروات والبقول والذرة زرعا في ناحية منها بعضاً مما جاء به التجار من حبوب.

وقد سوّراها بأخشاب وحبال صنعاها من الليف، وشقّا لها قناة تجري فيها عين ماء عذب جدا تنبع من جبل ليس ببعيد، وكان قد نالهما الكثير من التعب في شق هذه القناة، إلا أن لذلك التعب فضل كبير في التخفيف من وطأة الشعور بالقهر والحزن والغربة التي يعيشانها، واعتبراها من أهم انجازاتهما منذ وصولهما، كما بنيا حظائر لعنزة ودجاجات كانا قد اشترياها من تجار الأعشاب خلال الشهور الماضية.

تكثر الظباء في الجزيرة لكن يحتاج إلى صيدها صنع شباك تستمر مهيأة لأسابيع، أما الأرانب فإنه يمكن صيدها عادة بالفخاخ المحفورة حول المزرعة أما الطيور فكان من الصعب صيدها لعدم توفر بنادق صيد أو سهام رغم اكتسابهما بعض مهارة في التصويب بالحجارة، أو فخاخ القدور التي توضع على أعواد بصورة بدائية.

لم يتعرض لهما حتى الآن أو لم يريا حتى اللحظة سبعاً يهدد حياتهما فكان ذلك يكفي لاطمئنانهما من ضراوة الوحوش المفترسة.

منح الله الدكتور ‹‹أنور›› بسطة في الجسم، وهو إلى جانب كونه عالما كيميائيا يتمتع بغزارة في الثقافة إسلامية، وهو متوسط في تدينه لكنه يعشق قراءة القرآن وكثرة الصلاة التي زاد ترسخ حبها في قلبه بعد وصوله الجزيرة.

أبيض البشرة، أسود الشعر، يرجله دائما رغم حالته البدائية التي هو فيها له لحية متوسطة الطول تكاد تغطي عارضيه، كان يحلقها قبل أن يصل إلى هذه الجزيرة ثم أطلقها لسبب بسيط هو أن أدوات الحلاقة لا تتوفر عنده، عيناه عسليتان ثاقبتان تضيق قليلا، يتوسطهما أنف كبير في غير فحش، له وجه يميل إلى العرض قليلا، قوي البنية، دائم التبسّم، بشوش قلّما يغضب خاصة من أخته التي أوقعها في هذه الورطة.

أما الدكتورة ‹‹نهاد›› فلم تكن طويلة كأخيها، فهي متوسطة الطول نحيلة الجسم، لها شعر يميل إلى الحمرة قليلا، وتميل عيناها إلى اللون العسلي، وقد أخذت من شبه أمها كثيرا بخلاف أخيها الذي اكتسب صفاته من أبيه، لها وجه مستطيل وذقن مدبب وأنف مستدق، تظهر مسحة الحزن والقهر دائما على قسمات وجهها، وهي بشكل عام جميلة أخذت من الجمال قسطا وسطا.

ﮩﮩﮩ

في الساعات الأولى من صباح يوم من الأيام الرتيبة التي أخذت تطحن حياتهما بثقلها، خرجت ‹‹نهاد›› من الكوخ وهي تهلل وتدعوا الله بالفرج، وتنظر إلى شمس يوم جديد مثله كمثل الأيام قبله، بعد ليلة مطيرة كانت فيها الصواعق شديدة جدا.

أطلقت دجاجاتها إلى الغابة بينما مدت في حبل العنزة لترعى مع صغيرها كعادتها حول الكوخ.

كان الدكتور، مرتفق النافذة المفتوحة التي انهزعت دفتيها لثقل أعوادها وهو يرتل القرآن وفي التفاتة عفوية من ‹‹نهاد›› إلى عرض البحر رأت ما لم تصدقه عيناها، فغرت فاها ذهولاً، لقد كانت تدعو الله كل حين أن تراه، ولكن بعد شهور كسني يوسف أجيبت دعوتها. صرخت بأعلى صوتها المتهدج والفرحة تكاد تشق فؤادها:

- ‹‹أنور›› ... ‹‹أنور›› ... إنها سفينة ... أقصد مركب .. مركب فخم قادم من هناك الحمد لك يا رب ... الحمد لك يا رب.

اخترقت كلماتها حاجب الصوت، صوت ‹‹أنور›› الشجي، سكت من تلاوته ونظر من خلال النافذة بعينين ثاقبتين إلى عرض البحر وسأل أخته بصوت اختلط بفرحة فجائية:

- أين هو؟ أين هو؟

صرخت فيه أخرى بانفعال:

- أخرج .. إنه هناك .. هناك ...غير بعيد.

خرج ‹‹أنور›› يركض حافيا ويصلح من عويناته ذات الإطار المعدني والزجاج الثقيل وهي لا تكاد تستقر على أنفه.

ورفع رأسه نحو المشرق حيث أشارت أخته فرأى مركباً واقفا على صفحة الماء، ليس ببعيد، تعبث به الأمواج فوق بطن البحر.

وقف ‹‹أنور›› على طرف الشاطئ وجعل ينظر مليا فأدرك أن المركب لا يتحرك، كما لم يبدو على ظهره أحد.

وبسرعة خلع ملابسه وحطها على الأرض إلا سرواله الطويل ثم قذف بنفسه في الماء متجهاً نحو المركب، يعوم مرة ويسير في المياه الضحلة على الشعب المرجانية الهشة مرة أخرى، كانت آماله

بالنجاة تداعبه، والأمنيات بمغادرة هذه الجزيرة الكئيبة على ظهر هذا المركب إلى شواطئ النجاة تتضخم كلما اقترب منه.

فلما وصل إلى حائط المركب اتكأ على جداره وصاح بأعلى صوته المجهد الذي أخذت شدة التنفس تقطّعه.

- يا أهل المركب .. يا أهل المركب... هل من أحد هنا؟

كررها عدة مرات، مرة بالإنجليزية وأخرى بالفرنسية، لكن لا مجيب، فلما يئس من وجود مجيب بدأ يبحث عن مكان ليصعد إلى ظهر المركب، وبينما هو يتلمس مَمْسكاً ظهرت فجأة فتاة شقراء يتطاير شعرها الناعم الأصفر مع الريح الطلق كأسلاك ذهبية ناعمة.

نظرت إليه مندهشة ثم رفعت رأسها إلى الجزيرة وهي تصرخ بالإنجليزية:

- بابا .. ماما .. اليابسة .. اليابسة .. لقد نجونا.

ثم هرولت إلى الداخل وهي تكرر صراخها: لقد نجونا لقد نجونا.

أمسك ‹‹أنور›› مقبضا في المركب وجعل يلاحق أنفاسه وهو لا يدري ماذا يدور داخل المركب، وما هي إلا ثوان معدودة حتى خرج إلى سطح المركب رجل كهل وشاب وامرأة مع الفتاة وجعلوا ينظرون إلى ‹‹أنور›› وقد ارتسمت معالم الفرحة على أساريرهم، ثم قال الرجل وهو ينقل نظره بينه وبين الجزيرة:

- صباح الخير يا سيدي.

فأجاب ‹‹أنور›› بابتسامة عريضة:

- صباح الخير، ومرحبا بكم.

فالتفت الرجل إلى المرأة مسرورا لسماع لهجة ‹‹أنور›› الإنجليزية الفصيحة ثم توجه بوجهه إلى ‹‹أنور›› معرفاً:

- أنا السيد ‹‹هاندسون›› وهذه أسرتي، نحن سعداء جدا برؤيتك.

أوسع ‹‹أنور›› في ابتسامته وهو يجيل النظر إلى أعضاء الأسرة، وقال:

- بل أنا أكثر سعادة برؤيتكم يا سيدي.

لم تدم نظرات ‹‹أنور›› طويلا في الأسرة التي أنزلت له سلما ليصعد إليهم كان صعوده مفعما بالخجل، فقد كان سرواله رديئا بدت فيه تفاصيل جسده حينما ابتل بالماء، لكن استقبال الأسرة له، وتعبيرهم عن فرحتهم بمقدمه خفف من ذلك الشعور.

بعد التعارف بدا لـ‹‹أنور›› أن السيد ‹‹هاندسون›› في الستين من عمره متوسط الطول نحيلا، قد أخذ شعره الأصفر يكتسي بلون البياض، أزرق العينين ضيقهما، كأنهما تلمعان، دقيق الأنف، ذو وجه مستطيل وذقن مدبب، أما زوجته ‹‹نانسي›› فهي متوسطة الطول تميل إلى القصر، لكنها بدينة إلى حد ما، شعرها قصير مجعد قليلا متكوّم على رأسها، يقترب رأسها من كتفها وكأن لا رقبة لها، عيناها خضراوان ليستا بالضيقتين ولا بالواسعتين، وجهها مليء ثقيل، نظراتها تنم عن غرور ولهجتها تفصح عن ثقل نفس.

أما الابن المسمى ‹‹جو›› فقد ظهر طويلا جسيما يبدو في العشرين من عمره، مفتول العضلات، أخذ صفة شعر أمه وعينيها، تظهر عليه بوادر البلاهة واللامبالاة.

بينما تبدو البنت ‹‹سوزان›› في منتصف العقد الثالث، ذات قوام معتدل وشعر ذهبي صاف، عيناها كأبيها زرقاوان، تكثر البثرات البنية على صفحة وجهها جميلة إلى حد ما.

بمساعدة ‹‹جو›› رفع السيد ‹‹هاندسون›› المرساة من على ظهر المركب مع ثم رماها في البحر ثم عاد إلى ‹‹أنور›› ونظر إليه بوجه باسم مشرق، فبادره ‹‹أنور›› بقوله:

- اسمي ‹‹أنور›› .. الدكتور ‹‹أنور زكريا›› .. مصري الجنسية.

هز ‹‹هاندسون›› رأسه مرحبا وقال:

- تسرني رؤيتك كثيرا .. نحن غربيون يا صديقي [في عبارة كأنه لا يريد أن يفصح عن جنسيته] لقد أبحرنا من سنغافورة قبل بضعة أيام، ولكن لسوء حظنا وسوء الأحوال الجوية قذفت بنا الأمواج بعيدا إلى داخل المحيط وقد تعطل وقد نفد الوقود، بعد تعطل جهاز الاتصال، لقد قابلتنا مصاعب وأيام عصيبة يا صديقي. كدنا نهلك.

ثم التفت فجأة إلى زوجته وقال في دهشة:

- أين كيم؟ .. إني لا أراه!

هرولت الفتاة إلى الداخل ولم يكد الجميع يشرعون في حديثهم حتى سمعوا ‹‹سوزان›› تقول من الداخل:

- ‹‹كيم›› ليس هنا.

بدت نظرة استفهام عابرة على وجه ‹‹أنور››.. فقال الكهل موضحاً:

- إنه ‹‹كيم›› .. قبطان المركب.

قال ‹‹أنور››:

- ربما خرج في الصباح الباكر إلى الجزيرة حينما رآها، لا تخافون سيعود.

تمتم الرجل وهو يقول:

- نعم سيعود .. حتماً سيعود.

أبدى ‹‹أنور›› أسفه لما أصابهم لكن فرحته بهم أفصحت بها تعابير وجهه المتهلل، وقال لهم:

- أهلا بكم في جزيرة الأعشاب هكذا أسميها، هذه على ما أعتقد جزيرة أو شبه جزيرة لأنني لم أبلغ أطرافها، وليس من المناسب أن أحدثكم عن قصتي الآن لكنني أعتقد أنه يتوجب علينا سحب المركب إلى الشاطئ، حتى تتمكنوا من الحصول على الوقود اللازم.

قال الشاب ‹‹جو›› بلهجة لم تخل من حدة بلهاء:

- إلى متى؟ وماذا نصنع في هذه الجزيرة الملعونة؟

نظر أبوه فيه ثم التفت إلى ‹‹أنور›› يخاطبه قائلا:

- حسنا يا بني، ولكن قد يكون من الصعب وصول المركب إلى الشاطئ فهذه المنطقة الفاصلة تبدو ضحلة وصخرية.

رد ‹‹أنور›› بلغة الواثق من نفسه:

- نعم يا سيدي، ولكن هناك خليج صغير خلف ذلك الجبل. وهو أكثر عمقا، يمكننا أن نسحب المركب إليه.

صاحت به المرأة بصوت ليس بعيد من صوت ابنها، وقد تجهم وجهها.

- وماذا نصنع في الخليج؟ إننا نريد أن نبقى هنا حتى تمر بنا سفينة تنجدنا.

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه ‹‹أنور››، وظن أنهم يعتقدون أنه يضمر لهم شرا، فقال:

- بكل أسف أيها السيدة فإن المقام سيطول قبل أن تأتي سفينة من هنا، إنني في الحقيقة أخاف عليكم من القراصنة و إن لم أر أحدا منهم حتى الآن. وعلى كل حال أنتم ترون كوخي هناك، وإنني سعيد باستضافتكم، آمل أن أراكم قريبا. وعندما تقررون سحب مركبكم إلى الشاطئ فإنه يسرني أن أمد لكم يد العون.

ثم قام من التختة التي كان جالسا عليها ومد يده مصافحا الرجل واستأذن للانصراف.

كان اندفاع الدكتور في الحديث واستئذانه المفاجئ قد أشعر السيد ‹‹هاندسون›› بالأسف وبالغضب من زوجته في نفس الوقت لكنه صافح الدكتور وشكره على دعوته ووعده بالزيارة.

قفز ‹‹أنور›› إلى الماء وأخذ يعوم إلى الشاطئ تودعه أنظار الأسرة الحيرانة ولما ابتعد قليلا التفت ‹‹هاندسون›› إلى زوجته وقد عقد جبينه غضبا وقال لها بحدة:

- ما الذي أصابك يا ‹‹نانسي›› لماذا تردين على الرجل بهذه القسوة والصفاقة؟!

فردت بعصبية:

- إنه يخوفنا من القراصنة ولعله يكون هو رئيسهم.

فرد رافعا صوته من شدة غضبه:

- لو كان واحداً منهم لجاء برجاله واستولى علينا بالقوة.

فقالت بصوت أعلى بما طبعت عليه من حدة:

- لا تصرخ .. إنني أعتقد جازمة أنه جاء مستطلعا قبل أن يأمر عصابته بالهجوم .. ألم تلاحظ؟.. إنه عربي .. عربي .. أتفهم ماذا يعني عربي ومسلم بالنسبة لي؟!

هز رأسه وغمغم:

- ‹‹نانسي›› .. ‹‹نانسي›› .. يا لك من أصولية متشددة.

نظرت إليه بقسوة ثم انصرفت نحو الأسفل يتبعها ابنها ببلاهة، بينما وقفت ‹‹سوزان›› بجانب أبيها وكان قد صرف نظره إلى ‹‹أنور›› الذي وصل للتو إلى الشاطئ متوجها إلى ملابسه الملقاة على الأرض.

حينما وصل ‹‹أنور›› هناك أقبلت إليه أخته متلهفة لتسأله عما قابل فرآها السيد ‹‹هاندسون›› فصرخ بفرحة:

- ‹‹نانسي›› .. ‹‹نانسي›› .. انظري إن معه امرأة هناك .. انظري.

خرجت ‹‹نانسي›› لتستطلع الأمر لكنها أبقت وجهها الجامد على هيئته غاضبا مكفهرا .. فأشار إلى كوخ ‹‹أنور›› وقال:

- أنظري إنهما يدخلان الكوخ.

التفتت إلى المكان لكنها لم تر إلا الكوخ، فزاد غضبها واستدارت راجعة وهي تصرخ:

- يا لك من رجل .. يا لك من رجل.

لكن ابنتها جعلت تدعوها وتقول بصوت عطوف:

- أمي ... أقسم لك إن أبي صادق.

ثم لحقت بها، لكن الأم أصرت على البقاء مع نوبات غضبها المعهود على سريرها رغم تأكيد ابنتها على صدق أبيها.

ﮘﮗﮘﮗﮘﮗﮘ

ارتفعت الشمس إلى كبد السماء وبدأت الأمواج تعلو وتهبط، بل وبدأت رياح شرقية تعبث بالمركب على صفحة الماء بقوة، فعادت ذكريات الأيام السوداء تعود إلى العائلة الثرية، فاتفقوا أخيرا على اللجوء إلى ‹‹أنور›› مهما كانت أنشطته التي تجرمها ‹‹نانسي›› بشدة ويبرؤها ‹‹هاندسون›› بحذر.

نزل الرجل وابنه إلى الماء بملابسهما واتجها يعومان إلى الشاطئ في اتجاه كوخ ‹‹أنور›› فلما وصلا ناداه الرجل بصوت جهوري:

- سيد ‹‹أنور›› .. سيد ‹‹أنور››.

سمع ‹‹أنور›› النداء فخرج إليه متبسما ومهللا.

كان قد فرح ‹‹أنور›› بهذه الأسرة وبشّر أخته بها، وقال إنها ستؤنس بلا شك وحشتنا، بل إن الإنقاذ سيأتي قريبا لهم فهم -فيما يبدو - من الأثرياء الذين لهم أهمية كبيرة في بلادهم .. بل إنهم من بلاد تهتم برعاياها كثيرا.

أقبل ‹‹أنور›› إلى ضيفيه ورحب بهما، لكنه كان ينظر إلى الشاب بطرف عينه محتقرا سذاجته وغروره وطريقة مشيته المتبخترة وكأنه ما زال في عنفوان مراهقته.

دعاهما لدخول البيت فأبى ‹‹هاندسون›› متعذرا ببلل ملابسهما ولكنه أخذ ينظر إلى الكوخ وما حوله من حظائر الغنم وأكنة الدجاج والحقول الصغيرة حولها فابتسم مسرورا وقال:

- يبدو إنك هارب بزوجتك إلى أحضان الطبيعة بعيداً عن ضوضاء المدينة وتلوثها.

تنهد ‹‹أنور›› بعمق وابتسم كعادته بمرارة ثم قال:

- مكره أخاك لا بطل .. إن هذه الفتاة التي معي أختي، ونحن هنا منذ أربعة أشهر بدون اختيارنا.

نظر ‹‹جو›› إليه وقد ارتسمت على وجهه سحابة رضاء وسرور:

- بدون اختياركما؟ هذا عجيب! إنكما في أحضان الجنة هنا، لماذا لا تستمتعون بهذه المناظر الخلابة .. أنظر .. إن لديكما أغناما ودجاجا وكوخا جميلا.

قاطعه أبوه وهو يتحدث إلى ‹‹أنور›› قائلا:

- يبدو أن لدينا الكثير من الحديث سنسمعه ونقوله فيما بعد .. ولكن هل يمكن بالفعل أن نسحب هذا المركب الكبير إلى المكان الذي ذكرت؟

كانت في يد ‹‹أنور›› حصاة يقلبها بين يديه فرفع يده وصوبها نحو الزرع ليطرد بعض الطيور التي هوت فيه وهو يقول:

- أنا في الحقيقة لا أعرف شيئا عن السفن ولا عن القوارب، لكن هناك خليج عميق الماء كنت أظنه مرسىً للقوارب، إلا أنني لم أر قاربا كبيرا منذ قدمت.

أراد ‹‹هاندسون›› أن يستفسر عن الأمر لكنه فضل أن يرجئ الحديث فيما بعد إلا عما يهم سحب المركب إلى شاطئ الأمان، فقال لـ‹‹أنور››:

- ولكن كيف سنسحب المركب إلى هناك؟

- أمر بسيط ... فالرياح تهب الآن نحو الشاطئ وسوف تساعدنا في جره هل لديكم حبال طويلة؟

- نعم طويلة جدا.

- إذن سنربطها في مقدمة المركب ثم نسحبه نحن الثلاثة قليلاً قليلاً حتى نصل إلى تلك النخلة فنلف طرف الحبل على جذعها ثم نسحب الحبل جميعا نساء ورجالاً.

قال ‹‹هاندسون›› وهو يشك بنجاح الفكرة:

- لا بأس سنجرب.

ثم جعل يجوب ببصره في الغابة ويرفع بصره نحو أطراف الجبال الخضراء الشاهقة وهو يردد.

- ولكن أين ذهب ‹‹كيم›› اللعين ليساعدنا.

فجعل ابنه يصيح بصوته المجلجل في الغابة:

- ‹‹كيم›› .. ‹‹كيم››.

عاد ‹‹هاندسون›› إلى أسرته على ظهر المركب وقد أظهر لزوجته وابنته الرضا والشعور بالأمان، بينما كانت أسارير ابنه الصبيانية تكاد تشقق أشداقه فرحا وسرورا، أخذ الأب يشرح ما وجده على ظهر اليابسة من أمل في النجاة ويبين أنها أفضل من البقاء على هذا المركب المشئوم الذي حملهم إلى مجاهل البحار ثم تعطل بهم فيها، ورغم تخوف زوجته العنيدة من الرسوّ على شاطئ الجزيرة إلا أنها أذعنت لمصيرها المحتوم وهبطت إلى الماء وقد أخذت مع ابنتها طوقي النجاة وتوجهوا جميعا إلى الشاطئ حيث خرج ‹‹أنور›› مرحبين مسهلين فرحين بهم.

اربدّ وجه ‹‹نانسي›› واكفهر كثيرا حينما رأت ‹‹نهاد›› الجميلة وقد غطت شعرها، فلديها من تركيبات ذهنية سلبية عن الإسلام والحجاب الشيء الكثير.

أقبلت ‹‹نهاد›› إليهم ترحب بهم بلغتهم، ابتسم ‹‹هاندسون›› ونظر إلى زوجته التي لم تستطع أن تبدي إلا القليل من المجاملة الفاترة.

كانت ملابس ‹‹أنور›› وأخته باهتة الألوان مثناة لم تعرف حرارة المكواة منذ أن غادرا بلاد العصابة الفاجرة، لكنها نظيفة و إن كانت لم تغسل بالصابون منذ زمن.

توجه الجميع إلى الكوخ وقد جعلت ‹‹نهاد›› تكثر من عبارات الترحيب و إبداء السرور بمقدمهم، وقد أعجبت ‹‹سوزان›› بشخصية وجمال ‹‹نهاد›› كثيراً فجعلت تبدي لها سرورها بها وتتبسم في وجهها، بينما شاركتهما الأم بابتسامات باردة استطاعت ‹‹نهاد›› بحدسها أن تعرف شيئا عن شخصيتها المتكبرة لكنها تقبلتها مرغمة وأقبلت إليها متأدبة.

كان كوخهما الصغير مشيدا بالأخشاب المتعرجة التي تتفرع منها أغصان شائكة شكلت جدارا متينا حيث حيكت تلك الأغصان بنوع من الليف، حتى أصبحت الجدران لوحة متشابكة لا ينفذ النور من خلالها إلا قليلاً، أما السقف فقد كان عبارة عن كومة من القش المتراكم على أعواد مرتصة.

لم يكن الكوخ كبيرا فقد كان لا يتعدى مترين ونصفاً في مثلها، فيه فراشان باليان وفيه موقد بدائي عبارة عن أثاف من الحجارة قد امتلأ بالرماد والحجر وتناثرت أعواد الحطب حوله.

ولما فتح ‹‹أنور›› باب الكوخ سابقهم أسراب الذباب إلى الداخل فاكفهرت الوجوه، فقال ‹‹أنور›› مبتسما:

- مرحبا بكم .. أرجو ألا يضايقكم الذباب فهو ضيف تعودنا عليه وصعب علينا طرده.

ثم ضحك ومسح شدقيه من بعض اللعاب وهو يهيئ الفراش لضيوفه واستأنف قائلا:

- الحقيقة لا يوجد لدينا عصير ولا بُنّ ولا شاي، ولكن لدينا بعض فاكهة لم نكن نعرفها من قبل ولم نستسغها بداية حينما قدمنا إلى هنا، ولكننا نعتبرها الآن أحلى الفواكه في الدنيا، ولدينا شراب ساخن نصنعه من الأعشاب وربما نخلطه بالحليب.

ثم ضحك واستأنف مداعباً إياهم: لكنني أرى ألا تغامروا بشربه الآن حتى تستأنسوا وتحبوا الجزيرة وعندها ستستسيغون طعامها وشرابها، فالنفوس تستسيغ ما اعتادت عليه ولو كان مرا.

ضحك ‹‹هاندسون›› وقال:

- أتمنى ألّا يطول بنا المقام في هذه الجزيرة حتى نستسيغ طعامها وشرابها يا صديقي.

أما زوجته فقد اكتنف وجهها ظلال الحزن والغيظ ولم تنبس بشفة للتعليق.

بينما كان ‹‹جو›› ينظر إلى الخارج من خلال الباب تارة وإلى ‹‹نهاد›› المتحجبة تارة أخرى بنظرات لا تظهر عليها انفعالات آدمية لكنها تظهر بلاهة وإشارات غبية رغم الجسم القوي والعضلات المفتولة.

أما ‹‹سوزان›› فقد انشغلت بإطلاق بسمات الرضا لتحيي بها مضيفيها الذين يحاولان جاهدين التنفيس وتخفيف وطأة الوحشة عنهم. ولتشجع أباها المسكين الذي حطت به هذه الكارثة وصار الهم يكاد ينهش فؤاده كما تلاحظه ابنته، وليس هناك في الدنيا من هو أرفق من الفتاة بأبيها، أقصد الفتاة الطبيعية التي لم تفسد فطرتها بعد.

بعد حوالي نصف ساعة شرح ‹‹أنور›› قصتهما ورحلتهما المشئومة التي أوصلتهما إلى أحضان هذه الجزيرة المعزولة الموحشة، ظهرت على وجوههم وبعض عباراتهم علامات الاحترام والتبجيل لـ‹‹أنور›› لموقفه الأخلاقي البطولي.

وبينما هم يتداولون الأحاديث ويتدارسون الأفكار وغرابة اختفاء ‹‹كيم›› إذ اشتدت عاصفة شديدة السرعة ضربت الشواطئ بقوة وكادت تخلع سقف الكوخ عدة مرات، فكانت نذير شؤم بعث الخوف والاضطراب في نفوس الضيوف الجدد.

لم تهدأ الريح حتى هطلت الأمطار كأفواه القرب بسرعة وغزارة لم يعهدها ‹‹آل هاندسون›› من قبل، وبلغت القلوب الحناجر حينما ارتفع دوي الرعد القاصف الذي تتابع صوته ولمع برقه، انتظروا في الداخل يتأملون الخارج ويتعجبون من هدوء ‹‹أنور›› وأخته الذين تعودا على مثل هذه الأحوال الجوية القاسية.

وبعد ساعة من النهار انجلت مساحات شاسعة من الغيوم سمحت للشمس أن تظهر نورها الساطع على أرض غدت سيولا وغدرانا.

استأذن ‹‹هاندسون›› بالخروج وكان منظر الأرض والسماء بعد المطر جميلاً جداً وخاصة حينما هب نسيم رطب أنعش الصدور بالهواء النقي الرطب بعدما ضاقت واصطكت في أضلعها.

توجهوا جميعاً إلى البحر ليروا رأيهم في سحب المركب، من عدمه وما إن نظر إلى البحر حتى وجد المركب قد اقترب كثيرا إلى الشاطئ، لكنه يبدو مضطرباً على سطح البحر تعبث به الأمواج التي ما زالت تختبط على وجه الماء، انطلق ‹‹هاندسون›› وابنه معه يخوضان الماء ويعومان فوق أرض صخرية سوداء ذات أسنان حادة وشعب مرجانية بنية، حتى وصلا إلى قاربهما، كان ‹‹جو›› يعوم قليلا ثم يقف وينظر إلى الغابة ويصرخ بحنق:

- ‹‹كيم›› .. ‹‹كيم›› .. أين أنت أيها النذل.

أما الأب فلم يتوقف عن المسير والسباحة حتى أدرك المركب ثم صعد إليه وكأن أمر ‹‹كيم›› لم يعد يهمه.

وصل الابن إلى المركب وقد اشتد احمرار وجهه وانتفخت أوداجه بشدة عرف الأب أن الغضب قد وصل بابنه من ‹‹كيم›› موصلا، فقال وهو يبتسم بمرارة:

- تعال انظر إلى الداخل لعله عاد.

فلما استقر على المركب صرخ إلى الداخل بعصبية:

- ‹‹كيم›› .. هل عدت يا كيم؟

لكن لا حياة لمن تنادي، ‹‹كيم›› اختفى، ولعله هلك عندما نزل إلى البحر فأهلكته أحد هوامه، هكذا كان تفكير الشاب وهكذا عبر بهذه المخاوف لأبيه.

قال الأب:

- أتمنى ذلك يا بني، إنني أكره هذا الرجل كرها لا يوصف، إنه أناني ووصولي.

فقال الابن وهو يدرك عدم محبة أبيه له:

- ولكنك أنت من وظفه وقربه إلى العائلة يا أبي.

ندّت زفرة من صدر الأب كادت تحرق فؤاده ثم قال:

- أمك - يا بني - نعم أمك .. تقول: إنه صديق قديم لها .. ولعائلتها.. هي من فرضته علي في الشركة وفي المركب وفي كل مكان .. إنه يشاركني في أنفاسي تعلُّق أمك به عجيب جداً.

ثم غمغم وسكت فجأة .. دخل بسرعة إلى الداخل ليلج إلى الحمام.

جلس ‹‹جو›› على التخت يجول بناظره في الأفق الذي أطبق السماء على الماء فلم ير إلا زرقة البحر تلتصق بسواد السحاب من بعيد، بينما أخذت موجات البحر تتلاطم حوله، وبينما هو منتبه بشدة سمع صراخ أبيه من الداخل وهو يناديه ويأمره أن يحمل فراشين خفيفين له ولأخته أما هو فسيحمل آخرين ليعودا بهما إلى كوخ ‹‹أنور››، فالليل بوحشته قادم، والنوم في الكوخ أكثر أمانا منه على ذلك اليخت اللعين الذي طالما صفعت جدرانه الأكتاف والرؤوس وهو يقفز بين أمواج المحيط المتلاطمة.

وصلا إلى الكوخ لتستقبلهما خيوط ظلام الليل ونقيق ضفادع جدول الماء وخنافس الليل التي بدأت تسيطر على سكون الجزيرة.

دخل الرجل مطأطأ رأسه في الكوخ الذي ضاق به وبمن أمامه في تلك الساعة، لكنه وجد ‹‹أنور›› أمامه يحمد الله على عودتهما، ويزيد في الترحيب بهما وبينما هو يتلفت يمنة ويسرة ليرى أين ستكون مواقع تلك الفرش الأربعة، ابتسم ‹‹أنور›› ابتسامة خجولة وقال للرجل:

- ما رأيك أيها الضيف العزيز أن نستمتع نحن الرجال بالنسيم العليل في الخارج بينما تبقى النسوة هنا ليتمتعن بحريتهن بعيداً عن مضايقة الرجال.

هز ‹‹هاندسون›› رأسه موافقاً رأي ‹‹أنور›› بينما رفضت ابتسامة المجاملة أن تشق طريقها بين شفتيه، فهو لا يحب أن ينام في الخلاء، كما أنه يعلم أنه سوف يعاني - لا محالة - من غارات الناموس الذي يكثر في مثل هذه الجزر.

أما ابنه فلم يبال أن يقول:

- اذهبا أنتما إلى الخارج أما أنا فإنني سأمكث هنا مع أمي.

ثم التفت إلى أخت ‹‹أنور›› التي لفتها غلالة من الظلام في زاوية الكوخ وهي تصلح صفيحة سوداء صغيرة وتهزها، وقال حين رآها تقدح الكبريت:

- انظر .. انظر يا أبي إنها توقد مصباحا بدائيا هناك.

قرصه أبوه في ذراعه المدملج ثم تلّه بكم قميصه وتمتم وهو منصرف خارج الكوخ.

- هيا .. هيا اخرج أيها الأحمق.

خرج ‹‹أنور›› أمامهما وهو يريهما ويهيئ لهما مكانا مستطيلا مبسوطا قد حدد أطرافه بالحجارة .. وقال:

- هذا هو مجلسنا الخلوي، بل هو مصلانا الخارجي أيضا، إن الجلوس والنوم فيه ممتعان جدا.

رمى ‹‹هاندسون›› فراشه على الأرض وقد بدا الإرهاق على محياه المجهد بينما انصرف الابن مغضبا إلى الشاطئ وهو يركل الأرض برجله.

تسامر الرجلان بينما انضم الشاب إليهما يشاركهما حينا وتتسع حدقتاه أحيانا أخرى حينما ينظر إلى سواد الغابة وسفح الجبل رغم ضوء القمر الباهت.

كان لنعيق البوم ونقيق الضفادع وصفير الخنافس أثرها على نفسية الشاب وعلى أبيه الذي جعل يظهر شجاعته المصطنعة ‹‹لأنور›› و‹‹جو››.

أما هناك وداخل الكوخ فقد أخذت فتيلة المصباح ترسم أمواجا متقطعة من النور الخافت على صفحات وجوه النساء اللائي علا الشحوب صفائحها سوى أخت ‹‹أنور›› التي اعتادت على مثل هذه الليالي.

أخذت ‹‹نهاد›› تحكي لهما لياليها الأولى في هذه الجزيرة وما لقيته من مخاوف وصعاب وما ذاقته من مرارة القهر والخوف والجوع.

كانت الفتاة الأمريكية تستمع إليها وقد اختلط خوفها الحالي بشفقة عارمة على ‹‹نهاد›› وفزعها الحالي بخوف مستقبل مظلم ينتظرها في الأيام القادمة رغم بصيص الأمل الخادع الذي يراودها بالخلاص من هذا المأزق المشئوم.

أما أمها فرغم أن ركبتيها قد ساحتا من الخوف والفزع تحت وطأة قلبها الذي أخذ يرجف إلا أنه بقي قاسيا نحو ‹‹نهاد›› المسكينة فهي لم تعطف عليها ولم تبادلها داخليا أي من المشاعر الإنسانية التي تفرضها الطبيعة البشرية بين الناس.

مرت ليلتهم تلك وقد سامرت ‹‹هاندسون›› همومه وعانقته غمومه وكان الأرق قد سيطر على أسرته ولم يراودهم ثقيل النوم إلا بعدما بدأ بصيص نور الفجر يشع من حافة الأفق.

وحينما نهض ‹‹أنور›› وأخته يصليان الفجر كانت العائلة كلها تغط في نوم عميق.

تمنطق ‹‹أنور›› وأخته بحبال ملوية وحملا على أكتافهما أكياساً بالية وحملا فأسيهما على عاتقيهما .. وخرجا إلى الغابة ليجنيا ما استطاعا من أنواع الأعشاب التي يفضل قطفها قبل طلوع الشمس، وليجلبا ما استطاعا من ثمار الفاكهة البرية.

شقا طريقهما وأفواههما تلهج بذكر الله ما بين تهليل وتسبيح وتحميد وتكبير، حتى إذا ابتعدا عن منزلهما - فجأة - صرخت ‹‹نهاد›› ثم قالت ‹‹لأنور›› وهي ترتجف خوفاً:

- لقد رأيت شبح رجل .. نعم هناك رجل.

اقترب ‹‹أنور›› من أخته وجعل يحد نظره في غسق الفجر في الاتجاه الذي تشير إليه أخته، لكنه لم ير شيئا، فأمسك بيد أخته وأخذ يهدئ من روعها.

- لا تخافي .. ‹‹نهاد›› .. أذكري الله .. سمي الله .. ما الذي رأيته؟

- رأيت رجلاً هناك .. أقسم بالله لقد رأيت رجلا تحرك هناك.

ابتسم في وجهها الذي ما زال الظلام يغيّب كثيراً من تقاسيم جماله، وأخذ يهز رأسه وقد ضاقت عيناه وهو ينقل بصره بين أخته وبين الجهة التي تشير إليها وهو يردد.

- آآه .. آآه .. صدقت .. لقد عرفته.

فقالت أخته:

- ماذا .. ما الذي عرفته؟

- إنه ‹‹كيم›› .. قبطان مركب ‹‹هاندسون›› الهارب ليس غيره، لا يوجد أحد هنا سوانا .. أنا متأكد.

- ولكن لماذا لم يأت معهم؟

- لعله كان غضبان منهم .. أو خائفا .. لا أدري المهم ليس له مهرب إلا هنا في الجزيرة.

ثم التفت نحو الجهة التي هرب إليها ‹‹كيم›› ورفع صوته:

- ‹‹كيم›› .. ‹‹كيم›› .. تعال لا تخف .. ‹‹هاندسون›› هناك في الكوخ يبحث عنك وهو خائف عليك.

لكن لم يستجب له أحد.

فواصلا المسير نحو وسط الغابة. وبدءا يقطفان الزهور والأعشاب.

ꙮꙮꙮ

عندما اعتلى الضحى وبدأ نور شمس الصباح يسيطر على أرجاء الجزيرة، رجع ‹‹أنور›› وشقيقته وهما يحملان على أكتافهما أكياسهما القديمة، وقد تناصفت بمحصول اليوم المبارك وهما ينشدان ويغنيان فرحين مسرورين بمن أمامهم من الوافدين الجدد الذين سيغيرون لا محالة حياتهما التي غدت رتيبة كئيبة ولعل معهم سيكون الفرج.

وصلا الكوخ فنشرا محصولهما بين صخور ضخمة ليست بعيدة من الكوخ.

أما الفاكهة اللذيذة فقد بقيت في الأكياس ليعودا بها إلى ضيوفهما.

دخلت ‹‹نهاد›› إلى الكوخ فعمدت إلى الموقد الصغير فأخذت من حوله حشائش قليلة وأعواداً يابسة، فصفتها فيه ثم أوقدت النار بالكبريت الخشن والتي أخذت تحكه حكا حتى أشعل النار، ثم وضعت إبريق الماء الأسود عليه بعدما ملأته بالماء.

اتجهت للطحين وكان في كيس صغير لم يبق منه إلا القليل فأخذت منه ملء قبضتين أو ثلاث فوضعته في إناء معدني ظاهره أسود وصبت عليه الماء وشرعت في عجنه بكفين ناحلين.

استيقظت ‹‹سوزان›› على حركة ‹‹نهاد›› ورغم فزعها عند نهوضها حين رأت ما حولها إلا أنها تداركت فسمحت لشفتيها أن تطلق ابتسامه مثقلة بالإرهاق والتعب ثم نقلت ناظريها بين يدي ‹‹نهاد›› ووجهها وموقدها ثم قالت:

- صباح الخير يا عزيزتي .. هل استيقظت مبكرة؟

ردت ‹‹نهاد›› مبتسمة وهي تعجن:

- نعم .. مبكرة جدا، لقد قمت بأعمال كثيرة هذا الصباح، أتمنى أنكم قد نمتم البارحة جيدا.

حكت ‹‹سوزان›› رأسها وعنقها وجعلت تتلفت يمنة ويسرة وهي تقول:

- أنا؟! لا .. لا لم أنم إلا في وقت متأخر جدا.

واستأنفت حديثها:

- أرى أمي ما زالت نائمة، عفوا هكذا هو نوم أمي على بطنها ونومها ثقيل جدا.

ثم أخذت تنادي أمها وتهز كتفها بكفها.

نهضت الأم جالسة وهي متجهمة، وقد علا التعب والضيق الشديد معالم وجهها، فجالت بنظرها في ابنتها وفي الكوخ وفي ‹‹نهاد›› وهي ساكتة حتى قالت لها ابنتها:

- صباح الخير يا أمي.

فقالت الأم بصوت ثقيل دون أن ترد السلام:

- كم الساعة؟

نظرت ‹‹سوزان›› إلى ساعتها الذهبية الصغيرة، وقالت:

- أوه الساعة العاشرة صباحا.

رمت ابنتها بنظرة قاسية وقالت بحدة:

- فلم أيقظتني إذن؟

ثم هوت بجسدها المترجرج على الفراش وانقلبت على بطنها لتكمل نومها الثقيل.

أما ‹‹أنور›› فبعدما وضع محصوله في المخزن اتجه نحو النبع وأخذ منه ماء في دلو مطاطي أسود ثم عاد به إلى العنزة التي قد سيج عليها أعواد صنعت كجدار منيع يصعب على الذئب إن ـ

وجد ـ الصعود إليها، ثم دخل عليها وهو يكلمها وكأنها تفهم ما يقول، وبينما هو يقدم لها الماء وشيئا من العلف ويلاعب جفرها إذ أقبلت أخته بإناء صغير فارغ، فأعطته إياه وعادت إلى الكوخ مستعجلة لئلا تحترق خبزتها، فحلب ‹‹أنور›› العنزة وهو يداعبها بصوت مرتفع وكأنه يريد إيقاظ الضيوف من الرجال، الذي ارتفع شخير أحدهما.

استيقظ الرجل على صوت ‹‹أنور›› ولما جلس قليلا وانتهى من حك ظهره وصفحة رقبته قام متثاقلاً واتجه نحوه وأخذ يمازحه ويبارك له على عنزته الجميلة.

ضحك ‹‹أنور›› وقال:

- لعلنا نشتري لكم عنزة مثلها من التجار.

ظهر الفزع على محيا ‹‹هاندسون›› وقال:

- أتمنى ألّا نضطر إلى ذلك، بل أتمنى أن نخرج جميعا من هذا المأزق وتبيعهم أنت عنزتك.

رفع ‹‹أنور›› إناء الحليب على كفه وهو يقول:

- وأنا أتمنى ذلك، ولكن الأماني شيء والحقيقة شيء آخر.

زاد ضغط الحنق والحزن على قلب ‹‹هاندسون›› وتجهم وجهه، ولعل عبرة كادت تخنقه فرفع يده ليتكلم لكنه لم يستطع فصرف وجهه ثم انصرف نحو البحر وهو يضرب الأرض بأطراف حذائه الثمين، ثم صرخ في ولده النائم:

- ‹‹جو››.. ‹‹جو››.. انهض أيها الخرتيت.

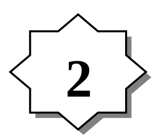
لم يحتج ‹‹جو›› إلى أصوات أكثر حدة فقد قام فزعا لأنه نام وهو خائف، فلما جلس افترش ساقيه ونظر إلى أبيه قال:

- ما الأمر يا أبي، هل رأيت سفينة تنقذنا؟

لم يكن باستطاعة أبيه أن يرد عليه فقد زادت وطأة العبرة على حنجرته فاقترب من البحر وجعل يضرب الأمواج المتكسرة على الشاطئ بصورة هستيرية بقدمه.

مسح ‹‹جو›› وجهه بكفيه بشدة ثم ضرب فخديه بهما ونهض وجعل يلتفت يمنة ويسرة بوجه أكثر تجهما وكآبة من وجه أبيه، يا لها من أمسية ثقيلة بكوابيسها القاسية على قلبه الضعيف.

ᘓᘔᘓᘔᘓᘔᘓ



بعد زوال الشمس ورغم ارتفاع حرارة الطقس في الجزيرة إلا أن الرياح القادمة من البحر لطفته كثيرا، اتجه الرجال جميعا إلى موقع يشبه الخليج نحو الغرب من كوخ ‹‹أنور›› تنتصب حوله بعض الصخور المتراكبة وترتكز على أطرافه بعض أشجار نخيل الجوز. ويشرف عليه غير بعيد شبه نفق من نفس الجبل ارتكز طرفه في الماء وتعلق الجزء الآخر في الجبل الشاهق وانغرست فوقه بعض الأشجار التي تغطي الجزء الثابت منه في الجبل.

أعجب ‹‹هاندسون›› به وبمنظره الخلاب وبرؤية أنواع الأسماك الجميلة التي رسمت أجمل صورة في مياهه الصافية، أخذ يتأمل طول وقاع وعرض الخليج بينما كان ‹‹أنور›› يشرح له كيف أنه لم يتمكن من صيد سمكة واحدة حتى الآن، لسبب بسيط هو عدم وجود آلة يصيد بها وأن أولئك التجار البدائيين قد وعدوه مرارا بصنارة إلا أنهم لم يوفوا بوعودهم، فبشره ‹‹هاندسون›› بأن لديه في المركب عددا كبيرا من الصنارات التي ستسعد ‹‹أنور›› الذي لم يصد سمكة في حياته كما يزعم.

أخذوا يسيرون على أطراف الخليج ويحددون المواقع التي يمكن أن يسحبوا المركب إليها، وقد ساعدتهم شمس الظهيرة على كشف أغواره ومعرفة الصخور القليلة التي قد تسبب أذى لأسفل المركب.

دار ‹‹هاندسون›› حول الخليج و‹‹أنور›› بكل عجلته وتلهفه كان يحاول إقناعه بإرساء المركب فيه.

وأخيرا اقتنع الرجل بالفكرة وقال بعد أن تنفس الصعداء وهو ينظر إلى ‹‹أنور››:

- نعم الخليج صالح لرسوّ المركب، ولكن المشكلة هي في طريقة سحبه إلى الخليج.

ابتسم ‹‹أنور›› مسرورا وقال:

- لا عليك يا صديقي، انظر، لقد بدأت الرياح تهب وستزداد سرعتها بعد قليل وسوف تساعدنا على سحبه.

قاطعه ‹‹جو›› وهو ينظر إلى البحر:

- أنظر أبي، سنسحبه من هنا بالحبال بقوة، وسنستخدم أشجار النخيل لا عليك.

أخرج الكهل ضحكة مجلجلة وقال:

- نعم يا ‹‹جو›› يجب أن نستفيد من عضلاتك هذه التي لم نر فائدتها بعد.

شزر الابن أباه ثم اتجه نحو البحر وكأنه لا يأبه بما قاله عن عضلاته.

عاد الجميع إلى الكوخ عازمين على العودة لجر مركبهم ليعيشوا على ظهره أياما أو شهورا ولعلها سنين، على نعيق البوم وهدير المحيط.

ورغم اتساع الخليج بالنسبة للمركب، لكنه عند سحب المركب العنيد إليه استغرق يوما كاملا.

وأخيراً أخذ المركب مكانه اللائق به على ضفة الخليج الموالية للجهة التي يتوسطها كوخ ‹‹آل أنور›› في موضع مهيب.

أدرك ‹‹هاندسون›› ببساطته النفسية أنه جاء هنا في هذه الأرض مرغماً وبقدر ليعيش بسلام، لكن فكره كان منشغلاً جداً بأصولية عجوزه المتحجرة، التي تجرع كثيرا بطبعها اللئيم، وقد خشي أن تملأ حياته بالأحقاد والعصبية المقيتة مع هذين الشابين الطبين.

وبالفعل فقد كانت السيدة ‹‹هاندسون›› كلما نظرت إلى المركب أعجبها وبغرور انتصابه، وكلما اتجه بصرها إلى كوخ ‹‹آل أنور›› احتقرت أهدابه، مع أنها لا ترى في داخل ذلك الكوخ إلا الأفاعي، ولا ترى سكانه إلا أعداء الأجداد والأحفاد.

أما ابنها فقد أخذت نفسه تهدأ ورجع يلهو بما حوله لينفّس كربه في تمريناته العضلية التي لا يفتر منها.

هو لا ينفع إلا بعضلاته، أما عقله فليس لده عقل، كما يقوله والده، فهو القوة البلهاء لأمه التي تدخرها لقادم الأيام.

لكن اللطف والدعة والأنوثة الماتعة عند ‹‹سوزان›› جعلت تلف صاحبتها التي استسلمت لقدرها وراحت تسخر سحرها وعقلها المتزن في الاستفادة من هذا الوضع الجديد الغريب لتحوله من يأس إلى أمل، ومن وحشة إلى سكن.

هذه هي عائلة ‹‹هاندسون›› التي جعلت تأوي إلى مركبها الفخم تنام وتعيش فيه بعد أن مدت إليه جسر قصير من أغصان الشجر.

ﮓﮔﮓﮔﮓﮔﮓ

مضت ثلاثة أيام والأسرة الغربية تهيئ مكانا لها على أرض الجزيرة، فقد أشار عليهم ‹‹أنور›› بمكان يبعد عن كوخه مائتي متر يخترقه جدول عذب ينحدر من نفس الجبل الذي تنحدر منه مياه نبع ‹‹آل أنور›› الغزير ويتمتع ذلك المكان بتربة خصبة تصلح للزراعة، يشرف عليها الجبل العالي من جهتين، لم يكن ذلك المكان بأفضل من مزرعة ‹‹آل أنور›› الذين سبقاهم إليه منذ شهور، ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

شد الجميع العزم على إعمار أرض يشككّون في البقاء فيها طويلا لكن لا بد لهم من العمل لإشغال أنفسهم بأعمال تنسيهم الغربة ووحشة العزلة.

ورغم أن الولد وأمه كانا لا يخفيان امتعاضهما من العمل في أرض هي أقل من أرض ‹‹آل أنور›› الفقراء الذين يسكنون كوخا من سعف النخيل وأغصان الأشجار إلا أنه كان عليهما أن يبدأوا بالعمل، ولكل حادث حديث كما كانت العجوز تقول، أما أبوهم فكان لا يرى إلا أن الخير كل الخير هو إصلاح أرض جديدة والتعايش بالمحبة والسلام.

شمّر ‹‹أنور›› وأخته عن سواعدهما وبدءا يظهران تفانيهما في مساعدة هؤلاء الجيران الجدد.



ارتفعت الشمس في كبد السماء واشتدت حرارتها المرتكزة على الرؤوس فأذن ‹‹هاندسون›› لأفراد أسرته و‹‹لأنور›› بالتوقف عن العمل والانصراف لتناول الغداء.

لم يكتمل بناء الكوخ بعد، وما زال يحتاج إلى الكثير من العمل.

استأذن ‹‹أنور›› للانصراف إلى كوخه حيث تصنع أخته غداءهما، فشكره ‹‹هاندسون›› على مساعدته لهم، أما ‹‹سوزان›› فكانت تأتيهم وتعود إلى أمها التي ما زالت تصنع الطعام في مطبخ المركب الفاخر.

جاءت السيدة ‹‹نانسي›› تدعوهم إلى الغداء وهي تسب وتلعن، ولو كانت تستطيع أن تناجز نفسها لفعلت، حتى الذباب يتلقى منها كل دقيقة لعنة أو لعنتين.

لم تعد ترى في هذه الغابة إلا كل عدو مأفون، أو سجن عفن ترفس فيه بأغلال الشك والريبة والكراهية.

لحقها أفراد أسرتها وكلهم يتمنى أن تسكت ولو ساعة واحدة يستريحون فيها من الشحن السلبي الذي يضغط على نفسياتهم المتهالكة.

بعد الغداء امتدت السيدة ‹‹هاندسون›› على فراشها الوثير. وقد رفعت ساقها الأيمن على ركبتها اليسرى المنتصبة وصوبت بصرها إلى السقف حيث تتراقص لمعة من نور الشمس المنعكسة من الماء.

وفي صمت كان ‹‹هاندسون›› خلاله يصلح صنارته الفاخرة قالت المرأة:

- ‹‹هاندسون››، هل أنت مطمئن لوضعنا هنا ولهذا الـ...؟!

ثم سكتت

بسرعة التفت إليها وهو الذي يعرفها ويعرف ما تعنيه لكن السؤال فاجأه فقال:

- ما ذا؟!

فردت وهي ما زالت تنظر إلى السقف:

- أقول: هل أنت مطمئن لـ‹‹أنور››؟

- يا لك من امرأة!!

قالها ورجع إلى شغله وزفرات الحنق تكاد تحرق صدره.

ولتزيده حرقة قالت:

- الحقيقة أنا لم أثق به أبدا، ولا بتلك الفتاة التي يدعي أنها أخته، إنني أكرهها كثيرا.

التفت إليها وقد تجهم وجهه وقال:

- لماذا يا امرأة؟ ما الذي صنعاه لك حتى تكرهينهما إلى هذا الحد؟! ألم تري أنهما قدما ويقدمان لنا خدمات جليلة، ولولاهما لأصبحت حياتنا هنا جحيما؟

ضحكت بسخرية وقالت متهكمة:

- لأصبحت حياتنا جحيما؟! هل تراها جنة يا ترى؟! لعل ‹‹نهاد›› التي لا تملك من صفات الأنوثة شيئاً قد أعجبتك؟!

كانت ابنتهما ‹‹سوزان›› واقفة تسمع الحوار بكل انتباه، لكن هجوم أمها على ‹‹نهاد›› التي أحبتها من قلبها أثار حفيظتها فصرخت في أمها وقال:

- أماه.. ما هذا الذي تقولينه؟ ‹‹نهاد›› ليس فيها شيء من صفات الأنوثة؟! إذا كانت لا تحمل صفات الأنوثة فمن يحملها إذن؟!

فهمت أمها أنها تقصدها هي، فصرخت وقالت:

- أخرسي، أنا أتحدث مع أبيك.

خرجت ‹‹سوزان›› وهي تنفض يديها بعصبية، وتهمهم وقد حشاها الغيظ.

هزّ الرجل رأسه يمنة ويسرة في حالة يأس من هذه العجوز التي تحمل في صدرها الحقد والبغض على فئات من الناس، لأنها قرأت أو سمعت عنهم.

أخرجت المرأة همهمة كأنها ضحكة ساخرة وقالت أيضا:

- مسكين أنت يا ‹‹هاندسون›› تظن أنك ملكت أرضاً طيّبة ونبع جميل وأنت الغربي الغني، الرجل الأبيض، لم تتحصل إلا على فضل ما تركه لك شاب في عمر أولادك وفقر خدامك .. آه .. هذه هي حياة الضعف.

احمرّت عينا ‹‹هاندسون›› غضبا من زوجته فنظر إليها بحدة ثم قام منتصبا وقال:

- يا لك من امرأة حمقاء عنيدة، تزعمين أنك تتبعين أوامر السيد ‹‹المسيح›› ولكنك في الحقيقة لم تمتلئي بشيء من السلام الذي يدعو إليه.

ثم أنصرف نحو الخارج غضبان أسفا.

فندّت عنها نفخة وبصوت ساخر مرتفع قالت:

- وما هي أوامر السيد ‹‹المسيح›› أيها الجاحد.

فصرخ بنبرة قاسية:

- أعرف أنه يأمر بالحب والعفو والصفح والمسامحة.

ثم رفع صوته -: ‹‹المسيح›› إله سلام أيها الكاهنة المحترمة.

فردت بصوت أعلى ليبلغه كلامها وهو يبتعد:

- كنت أعرف أنك لا تقرأ الكتاب المقدس ولا تحضر الكنيسة، فكيف عرفت هذا أيها ....؟

فقاطعها بصوت أسيف:

- نحن جميعاً تعلمنا ذلك منذ الصغر أيها المتدينة، تعلمناها لكننا جميعاً نسمع ونتكلم، ولكن لا نفعل.

انقلبت غاضبة على جنبها الأيمن وهي تتمتم بكلمات لم يتبينها.

فهبط من المركب وبينما هو يسير على الشاطئ وجد ابنه قد شمر عن ساعده وهو يصارع عصا غليظة في يده بسكينه الحادة ليسلكها وهو يعض على باطن شفته. فنظر إليه بحدة وكأنه أراد أن يتوقف ليفرغ شحنة غضبه من زوجته في ابنها لكنه خاف من شيء فانصرف وهو يهمهم.

نهض الابن بتثاقل وهو يودع أباه ببصره ثم توجه إلى أمه في المركب الحبيس.

وقف على باب الحجرة وقد افترّ شدقه الأيمن بابتسامة ثقيلة وقال لأمه مستوضحا:

- ما الذي أغضب أبي يا أمي؟ وما هذا الصراخ الذي علا بينكما؟

لم تلتفت أمه نحوه وأبقت صفحة وجهها قبالة النافذة الزجاجية الصغيرة لكنها قالت بصوت خفيض:

- لا أدري يا بني، لم يتمالك أحدنا أعصابه ...لا عليك دعني وحدي.

ꕥꕥꕥ

وتتالت الأيام الثقيلة على ‹‹آل هاندسون›› و‹‹أنور›› وأخته لكنهم جميعاً انشغلوا كثيراً ببناء الكوخ وإصلاح الأرض للزراعة التي لم تتوفر بذورها بعد.

وفي ضحى يوم شبه مشمس تتطارد فيه رباب السحاب الثقيل نحو الغرب صرخت السيدة ‹‹هاندسون›› من فوق المركب وهي تنادي زوجها وولدها بصوت حاد:

- ‹‹هاندسون›› .. ‹‹هاندسون›› .. جو.

كان الصراخ عصبيا يكاد يفجر حنجرتها الغليظة، هرع ‹‹هاندسون›› وابنه إليها بينما وقف ‹‹أنور›› يراقبهم من بعيد ممسكا قدح اللبن الفارغ في يده إلى جانبه أما ‹‹نهاد›› فقد خرجت مسرعة إلى ركن الكوخ وظللت حاجبيها بكفها المعروق لتنظر وتستطلع الخبر، لكنهما لم يسمعا إلا كلمات لم يتبينا معناها حيث دخلت ‹‹نانسي›› مع ‹‹هاندسون›› و‹‹جو››إلى الداخل، أما ‹‹سوزان›› فقد وقفت غير بعيد من ‹‹أنور›› ترتعش من الخوف، فقد راعتها صرخة أخيها الذي أجاب أمه وهي تغط في نومها العميق في الكوخ.

أخذ ‹‹هاندسون›› يهدئ من زوجته الثائرة التي تستعر غضبا وترتعد من شدة تأثرها. وهي تقول:

- لقد سرقونا .. نعم .. سرقونا .. انظر.

وأدخلتهما إلى الغرف.

- لقد سرقوا أفضل فراش عندي .. لقد سرقوا بعض القداح والقدور .. أنا أقول لك: هؤلاء لصوص وأنت لا تصدقني.

امتقع وجه ‹‹هاندسون›› حرجا من أن يسمعها ‹‹أنور›› وهي تتهمه صراحة بالسرقة، وتكيل أقذع الأوصاف وتزيد كيلتين لـ‹‹نهاد›› المسكينة.

امتص ريقه ونظر إليها بعينين أسيفتين وقال لها بصوت هادئ رصين:

- اهدئي ‹‹نانسي›› أرجوك اهدئي، لا داعي لكل هذا الغضب.

فردت وهي تهز رأسها:

- ولماذا أهدأ؟ هل سترجع لي ما سرق الآن؟! أنا لا أدري ما الذي سرق غيره.

وكعادته وبصوته الهادي:

- أرجوك ‹‹نانسي›› فقط اهدئي وسوف نصل إلى حل.

انصرفت منه نحو سريرها في المركب وقد حشاها الغيظ. أما ‹‹هاندسون›› فكان يرمقها بعينين ملأتا بالشك والحيرة.

ثم خرج من المركب يجر خطاه نحو الكوخ.

وفي طريقه كلمه ‹‹أنور›› من بعيد قائلا:

- سيد ‹‹هاندسون››، أرجو ألّا يكون هناك مكروهاً قد وقع عندكم.

فرد عليه وهو ينظر إلى طريق قدميه، وكأنه لا يريد أن يقرأ ما في عينيه:

- لا .. لا يا صديقي، مشكلة بسيطة فحسب.

نفض ‹‹أنور›› قدحه ليقذف ما تبقى فيه من قطرات ماء ثم توجه إلى عنزته ليحلبها، وما إن بدل الشق الثاني للضرع حتى التفت إلى السياج حيث تقف المرأة بشعثة رأسها المتطايرة وعينيها اللتين تكادان تتطايران شررا ويقف خلفها نحو اليسار ابنها ببلاهته المعتادة.

ابتسم ‹‹أنور›› في وجهها وقال:

- مرحبا سيدة ‹‹هاندسون›› هل لي أن أعطيك شيئا من الحليب الطازج؟

فألقت عليه نظرة حادة يفصح عن حقد واحتقار. ثم انصرفت بعصبية نحو كوخها الذي مازال في طور التشييد.

ꕤꕤꕤ

في مساء صفا جوه وتلألأت نجومه وأرسل البحر الهادئ نوعا من نسائم لطيفة، غلت ‹‹نهاد›› الحليب وحلته بشيء من العسل، فالعسل في هذه الجزيرة كثير لا يكدر جنيه إلا لسعات النحل المؤلمة.

ثم أخذت إبريق الحليب الأسود وتوجهت مع ‹‹أنور›› إلى كوخ ‹‹آل هاندسون›› ليتسامروا سوية كالعادة، وما إن سلّما، وجلسا على الأرض ووضعت ‹‹نهاد›› إبريقها على الأرض أمامها ونادت ‹‹سوزان›› لإحضار الأقداح حتى تبسمت ‹‹نانسي›› بسخرية قائلة:

- ‹‹نهاد›› .. ألا يوجد لديكم إبريق أنظف من هذا؟!

ندت زفرة حرى من صدر ‹‹نهاد›› وصوّبت بصرها إلى إبريقها الأسود ثم نظرت إلى ‹‹نانسي›› لكنها رأت وجها أقبح مما كانت تراه فقد كان وجه ‹‹نانسي›› ملئ بالغضب المحض. بسرعة صرفت نظرها نحو ‹‹أنور›› لعله يلاحظ ما لاحظت، لكن ‹‹أنور›› كان يسأل جو:

- أراك يا ‹‹جو›› مستمتعا هذا الأيام بصنع العصي والفخاخ لصيد الطيور؟

ضحك أبوه ساخرا وقال:

- ‹‹جو›› .. حتى الآن لم يصد إلا عصفوراً واحداً قبل يومين ولو كنا نعتمد على صيده لمتنا جوعا، ولكن السمك عوض عنا وجبات البروتين هنا.

ضحك ‹‹أنور›› وقال:

- لعل حظ ‹‹جو›› في صيد الطير مثلي في صيد السمك، وفي الحقيقة إنني أشكركم على هداياكم من السمك فمنذ أن جئنا إلى هنا لم نشبع بوجبة من السمك حتى جئتم، وإنني أعدكم أن أصيد غزالاً أو أرنبا في القريب العاجل ‹‹إن شاء الله›› فقد أكملت حفرة في طرف الغابة سأستخدمها لصيدها.

ابتسم ‹‹هاندسون›› والتفت إلى زوجته ليستمنحها ابتسامة مجاملة ولو صفراء على الأقل.

لكنها لم تزد على مطّ طرف شفتها مع نظرة فاترة أرسلتها ‹‹لأنور›› الذي استغربها فقال على الفور:

- عفوا، يبدو أن السيدة ‹‹هاندسون›› متضايقة.

بسرعة أوسع ‹‹هاندسون›› في عينيه مصوبا إياها نحو ‹‹نانسي›› وكأنه يحذرها من الحديث عما دار معه في الصباح عن السرقة.

لكنها تجاهلت نظرته وقالت بأسلوب ساخر:

- دكتور ‹‹أنور›› ألم تر بعض الفرش الوثيرة والأواني النفيسة خارجة من مركبنا الليلة الماضية أو هذا اليوم؟!

شهقت ‹‹نهاد›› فزعا .. بينما خيّل ‹‹لأنور›› أن صفعة قوية سددت نحو وجهه الحاسر.

فقال بهدوء المصاب في كرامته:

- عفوا! لم أفهم سؤالك.

تدخل ‹‹هاندسون›› ملطفا الحديث.

- لا .. لا شيء صديقي ‹‹أنور›› .. فقط ...

وبسرعة قاطعته نانسي:

- لقد سُرق من مركبنا فرشاً وأواني ثمينة وليس في هذه الجزيرة سوانا.

تبادل ‹‹نهاد›› و‹‹أنور›› نظرات ذات معنى.

أما ‹‹هاندسون›› فقد غرق في بحر الإحراج وكذا كانت ابنته، أما ‹‹جو›› فكان يتابع بتشوق ماذا سينتجه ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة.

التفت ‹‹أنور›› نحو ‹‹نانسي›› التي حدت بصرها وضغطت على فكيها لتبين حزمها.

وارتسمت ابتسامة باهتة على محيا ‹‹أنور›› تعبر عن الشعور بالظلم والحرج في وقت واحد وقال:

- سيدة ‹‹نانسي›› هل أفهم من ذلك أنك تتهميننا بأننا الذين سرقنا ذلك من مركبكم؟!

- دون شك، فلا أحد سواكما.

وجم ‹‹هاندسون›› وتغير لون وجهه، ولكنه لم يألوا جهداً في رسم صورة اعتذار لـ‹‹أنور›› و‹‹نهاد›› موضحا لهما في تلك الصورة عجزه وقصر حيلته.

قال ‹‹أنور›› بصوت حازم:

- اسمعي أيتها المرأة، لم تقذف بنا أمواج القدر في هذه الجزيرة اللعينة إلا خوفا من الله وتضحية من أجل مبادئنا السامية، ولم تكن أغراضك الحقيرة تلك بالتي تغرينا من أجل التنازل عما نؤمن به، ثم إن كوخنا لا يتسع أكثر مما عندنا.

ثم ربت على ركبة أخته ونهض.

نهضت أخته بتثاقل فقد كان حمل التهمة ثقيلا على نفسها.

قام ‹‹هاندسون›› كذلك وهو ينظر بكل عتب إلى زوجته وبكل أسف نحو ‹‹أنور›› و‹‹نهاد››.

أما ‹‹سوزان›› فقد قامت بعصبيتها المعهودة وانطلقت نحو الكوخ وهي تنوء بحرج شديد تجاه الطيبين الذين كان لهما فضل كبير عليهم جميعاً، وهي تكتم بكاءها.

التفت ‹‹أنور›› نحو ‹‹نانسي›› التي بقيت جالسة بكل كبرياء وغطرسة، وقال لها:

- اسمعي .. لقد تحملت مضايقتك المباشرة وغير المباشرة أنا وأختي منذ أن قدمتم إلينا، وكنا دائمي العفو عن زلات لسانك الذي تحدّين شفرته كل حين وخاصة على أختي، وما سكوتنا إلا امتثالا لديننا وأخلاقنا وتربيتنا التي تربينا عليها منذ صغرنا، ومن أجل هذا الرجل الطيب وهذين الشابين.

فقاطعته وهي تهز رأسها بعصبية:

- ولولا ذلك فماذا كنت ستصنع؟

فرد وهو ينزل الإبريق الذي أخذته أخته إلى الأرض:

- أقول حسبنا الله ونعم الوكيل، والصبر مفتاح الفرج.

ضحكت ضحكة سمجة.

سلط عليها نظرات ملؤها الحقد والاحتقار ثم انصرف مع اخته إلى كوخهما.

ꕥꕥꕥ

كثر اختفاء أشياء صغيرة وكبيرة من المركب ورؤي بعض العبث في المزارع عند الطرفين، حتى إنهم انقسموا في اتهاماتهم فـ‹‹أنور›› وأخته أيقنا أن الفاعل هو ‹‹كيم›› لأنهم مكثوا أشهرا لم يريا أحداً في الجزيرة، وهذا هو رأي ‹‹هاندسون›› الذي يضمر بغضا دفينا له.

لأما ‹‹جو›› وأخته فيعتقدان أنه ربما في الغابة قبائل محلية هم سكان الجزيرة وهم الذين اختطفوا ‹‹كيم›› وهم الذين يقومون بهذه السرقات، لذا فهما يرتعدان خوفا من الوحدة أو من

سماع الأصوات في الليل وخاصة تلك الأصوات الغريبة التي صارت تحدث بعد مجيئهم ولم يكن يسمعها ‹‹أنور›› وأخته من قبل.

بعد صلاة فجر أحد الأيام بعد مضي شهر لـ‹‹آل هاندسون›› في الجزيرة نادى ‹‹أنور›› ‹‹هاندسون›› من بعيد فاستجاب له الرجل الذي أصبح نومه خفيفاً بعد أن صار ينام مبكرا جدا، ولم يعد يجد مسكرا يشربه أو غليونا يوقده.

فرك عينيه داخل الكوخ وأخذ يتلمس الطريق حتى خرج إلى ‹‹أنور›› الذي وقف كعملاق دون وميض نور الفجر الذي رسم خيطه الأبيض على أفق البحر..

تذكر أنه قد وعده بالخروج معه حيث الفخاخ لعلهما يجدان فيها ما يسد جوعهما وجوع أهلهما، فقد بدأ الطعام الذي معهم يقل إلى حد مخيف، أما السمك فقد وصل بهم إلى حد السأم من كثرة ما أكلوه وخاصة أنهم لا يصنعون منه إلا مشويا في الغالب أو مطبوخا في ماء وملح، وقد تأخر التجار الذين أخبر عنهم ‹‹أنور›› فلم يأتوا منذ خمسة أسابيع.

توجه الاثنان إلى قلب الغابة، وقد وجد ‹‹هاندسون›› في نفسه نشاط الشباب وحيوية العشرينات، ورغم ما يعانيه من اليأس والقنوط إلا أنه كان ذلك اليوم مترعا بالفرح والحماس وهذا النشاط لم يعرفه منذ أن عرف نانسي.

كان ينظر إلى كل شيء حوله بعين السعادة فهو يرى النور يجلل الشجر والحجر والزهر شيئا فشيئا.

لم يكن ‹‹البنطال›› أو القميص اللذين يلبسهما مما يناسب مثل هذه الرحلة فقد عتب على نفسه حينما رأى ‹‹أنور›› لابسا ‹‹بنطالاً›› رثا وقميصا باليا، وتمنطق بحبل طويل من الليف أداره على خصره الناحل عدة مرات، وغرس بينه وبين خصره الضامر سكينا طويلة.

وجعل يحادث نفسه وهو يسير خلف أنور:

- يا لـ‹‹أنور›› المسكين، كم عانى من الوحدة والظلم والخوف، لقد أحببته كثيرا، يعجبني فيه علمه وعقله وحيويته وصبره.

وما إن تبادر الصبر إلى ذهنه حتى تذكر مواقف ‹‹نانسي›› منه فحلق الغضب في فضاء نفسه، لكنه كان قادراً ذلك اليوم السعيد على نفضه بحديثه مع نفسه.

- الله .. ما أجمل الحياة إذا امتلأت بالحب والوئام، يا الله، ما أجمل الحياة إذا ملأنا حياتنا بالتسامح والعفو، والصبر.

لم يشك ‹‹أنور›› في أن ‹‹هاندسون›› يخاطب نفسه، فهو أيضا يورد أفكاراً ويصدر أخرى، لقد أرتاح كثيرا له وتمكن ذلك الارتياح من نفسه، حتى انه رأى فيه الصورة الرائعة للإنسان الغربي المنصف بعكس ‹‹نانسي›› التي تعكس الجانب المظلم للعملة الغربية.

تجاوز الاثنان رأس الخليج بعد أن أخذا يقفزان على صخور الصوان التي نعم سطحها مد البحر عبر السنين حتى أصبحت كالزجاج، وكأنهما غزالين يتسابقان في الغابة السوداء.

واصلا طريقهما نحو هدفهما حتى إذا اقتربا من الفخ الأول صرخ ‹‹أنور››:

- ‹‹الحمد لله›› إني أرى سقف الفخ قد هبط.

ثم انطلق مسرعا نحوه فلحقه ‹‹هاندسون›› يتمايل فلياقته لم تعد تساعده للهرولة كثيرا.

وقف ‹‹أنور›› فوق الفخ يضحك وهو يقول:

- مبروك سيد ‹‹هاندسون›› مبروك، لقد اصطاد لكم الفخ ولم يصطد لنا شيئا.

تعجب ‹‹هاندسون›› من قوله هذا فما الذي يكون لهم ولا يكون لهما، هل يريد أن يؤثر على نفسه حتى في اللحم، أم أنه رآنا أكثر عددا وأصبح الغذاء قليلا جداً عندنا؟

ولكن ما إن وقف على شفا الحفرة حتى بطل عجبه فقد كان في الفخ خنزيرا برياً صغيرا هوى إلى قاع الفخ فاخترقت العصي المدببة جوفه فقضت عليه.

قال ‹‹أنور››:

- انظر .. انه خنزير سمين.

مطّ ‹‹هاندسون›› شفتيه، وتغيرت ملامح وجهه من منظر الخنزير المطعون وقد علقت شعيرات ودم في رأس الرماح التي اخترقته، ثم التفت إلى ‹‹أنور›› وقال:

- أنا لا أحب أكل لحم الخنازير فكيف بالخنازير البرية. فرد عليه ‹‹أنور›› قائلا:

- ولكن لا خيار لكم، هو لحم تأكلونه.

- ولماذا نأكله نحن ولا تأكلانه أنتما معنا.

ارتفع صدر ‹‹أنور›› وابتسم وقال:

- نحن المسلمون لا نأكل الخنزير يا ‹‹هاندسون››.

فرد وهو يهز رأسه وقد جلس ينظر إلى صيده:

- نعم .. نعم .. هو حلال عندنا وحرام عندكم.

ومكثا دقائق يناقشان تحريم الخنزير وتحليله وهل الذي أحله السيد المسيح أم بولس؟ وما هي الحكمة من تحريمه عند المسلمين؟

وفجأة انتبه ‹‹أنور›› فقال:

ـ أوه .. دعنا أولا نواصل سيرنا إلى الفخ الآخر الكبير أدعو الله أن نجد فيه صيداً خير من خنزيرك يا ‹‹هاندسون››.

ثم انصرف نحو الشرق يتبعه ‹‹هاندسون›› وكله أمل أن يجد في الفخ الآخر غزالا.

جدّا في السير حتى إذا أقبلا على الحفرة شعر ‹‹أنور›› بوحشة غير معتادة وقبل أن يصل إليه سمع خشيشا للهشيم في قاع الفخ، حتى خشي أن يكون الصيد سبعا ضاريا، وما إن وقفا على حافته حتى صرخا وكانت صرخة ‹‹هاندسون›› مدوية:

- ‹‹كيم›› ! لقد اصطدناك أيها الوغد.

كان ‹‹كيم›› جالسا في طرف الفخ العميق وكان من حظه أن ‹‹أنور›› لم يضع فيه رماحا مثل السابق لعمقه.

جعل ‹‹كيم›› ينظر إليهما وقد بلغ به الإعياء مبلغا ونظراته تتقاطر خوفا وهلعا.

كان وجهه الشاحب قد ارتسمت فيه عينان ضيقتان وفم واسع وأنف غليظ وبشرة حنطية، وقد تملكته رعدة تدل على أنه بات ليلة سوداء مخيفة في قعر حفرة لم يستطع النجاة منها.

خاطبه ‹‹أنور›› بقوله:

- صباح الخير ‹‹كيم›› أتمنى أنك لم تصب بأذى.

لكن نظراته الساذجة لم تتغير، ولم ينبس ببنت شفه فأيقن ‹‹أنور›› و‹‹هاندسون›› أن الرجل في حالة صدمة هستيرية أفقدته القدرة على النطق فأرسلا إليه الحبل، فتمسك بطرفه ثم سحباه إلى الأعلى، وكانت الخيبة في أنه لم يشاركه فخه ولا حتى أرنب، أما ‹‹كيم›› فقد بادل سيده ‹‹هاندسون›› نظرات ملؤها الخجل والإحراج والخوف، ورغم أنهما جعلا يهدئان من روعه ويسألانه عن حاله إلا أنه التزم الصمت وهو يدير حدقتي عينيه في وجوههما.

عادوا جميعا إلى الفخ الأول فتدلى ‹‹أنور›› إلى الخنزير بالحبل ولم يستطع أن يخفي تقززه وهو ينزع الخنزير من الرماح التي اخترقت بطنه وصدره ثم ربطه في الحبل فجذبه ‹‹هاندسون›› إلى الأعلى.

ولما صعد ‹‹أنور›› إلى الخارج ناول ‹‹هاندسون›› السكين وقد بدت أساريره تنقبض تقززا وقال:

- خذ السكين وقم بسلخ ذبيحتك، أما أنا فاعذرني، لا أستطيع مساعدتك.

قام ‹‹هاندسون›› بسلخ جلد الخنزير الذي امتنع على كثير من اللحم حتى إذا انتهي من إخراج حواشيه حمله على قميصه الثمين الذي أخذ يتلون بدم الخنزيرمع تكرار اعتذارات ‹‹أنور›› أنه لا يستطيع أن يحمله معه تقززا.

أما ‹‹كيم›› فقد رافقهما يسير وكأنه إنسان آلي لم ينبس حتى بكلمة، في حين كان ‹‹هاندسون›› مالكا عليه لسانه، فلم يسأله أو يعنفه وعند كوخ آل ‹‹كيم›› اعتلت صرخات المفاجأة الممزوجة بطيف من الفرحة والتعجب والغضب.

وكان عذر‹‹كيم›› الذي لم يقتنع به أحد منهم أنه هرب خوفاً من بطش ‹‹هاندسون›› والبحث عن مخرج لهم جميعاً.



أصبح الرجال في جزيرة الأعشاب كلهم ملتحين، فقد أطلقوا لحاهم مرغمين لا تدينا عند ‹‹أنور›› ولا تجملا عند ‹‹هاندسون›› وولده وقبطانه، بل لأن أمواس الحلاقة شحت وصار المظهر باللحية مستساغا، لتعودهم على رؤية أنفسهم بها.

وكل شيء يستساغ مع طول النظر ويؤلف مع طول المعايشة، فكيف بشيء طبيعي خلق في الرجال دون غيرهم.

كان التحول كبيرا في حياة هذه الجزيرة بمقدم أو على الأصح بالعثور على ‹‹كيم›› الذي كان أقل ما يقال عنه النسخة الذكورية لنانسي.

فقد أقبل بمخزون صدره المكتنز بالسخيمة والضغينة على ‹‹أنور›› و‹‹نهاد›› و‹‹هاندسون›› أيضا.

ورغم أنه كان في أشد الحاجة إلى العطف والاحتواء إلا أنه كان شديد الرعونة والصلافة.

فكان يظهر لـ‹‹آل هاندسون›› شدة حاجتهم إليه لا حاجته إليهم، ويرى فضله عليهم لا فضلهم عليه.

وهذه هي صفات الأنذال من البشر حينما تنبت لحوم أكتافهم وتقوى عضلاتهم على مدى السنين من خير الآخرين فإذا قاموا بشيء له فائدة لأرباب نعمتهم عظمت في أعينهم تلك الفائدة حتى تصبح جبلا من المعروف الذي لا ينافس صنعه ولا يقهر مثله.

وكان يدندن ـ من حين لآخر ـ بما يظنه معروفاً ليذل به ‹‹آل هاندسون›› أنه أنقذهم من الأمواج العاتية التي أفهمهم أنهم لولاه لأصبحوا طعاما للحيتان، وما يدرون أنه لولا لطف الله ثم حماقته لكانوا في أجنحة إحدى فنادق سينغافورة الفاخرة.

لم تكن ‹‹نانسي›› بالنسبة له إلا المهندس اللاواعي لهذه العجرفة المقيتة التي بلا حيلة يعاني منها ‹‹هاندسون›› فقد برم منه منذ زمن لكن ‹‹سيدته›› لم تكن لتدع رجلا هو أقوى حليف لها في عالم لا يؤيد أفكارها ولا يقبل غرورها ولا يتقبل عجرفتها غيره.

ﮨﮨﮨﮨﮨﮨ

في اليوم التالي لمقدم القبطان القبيح وفي زاوية من الليل البهيم الذي صفت سماؤه التي امتلأت بالنجوم في مظهر خلاب مهيب، وظهور خجول لهلال وليد في طرف السماء، خرج ‹‹هاندسون›› مهموما بعد طول جدال مع زوجته وطول ضغط نفسي من حضور هذا الوغد اللئيم.

وعلى صخرة التصقت بأسفل الهضبة الشمالية ليست بعيدة عن كوخه أسند ظهره عليها ومد رجليه نحو الكوخ واتكأ على كفيه وجعل يفكر فيما آلت إليه حاله.

وقد تلبسته حالة من الكئابة واليأس تكاد تتلف أعصابه.

أراد أن يغمض عينيه لعل سلاما يتسلل إلى روحه البائسة، إذ بهشيش يسمعه وصوتِ يتسارع بين صوت الأمواج الصغيرة التي تتلاطم على صفحة صخور التل.

صاخ قليلا وحدّ بصره نحو الصوت فرأى شبحاً متقدماً نحوه فسرت في جسده قشعريرة الخوف، لكن نحنحة انطلقت من حنجرة ‹‹أنور›› أذابت خوفه بسرعة تمكن بعدها من رفع صوته بالترحيب الخافت.

- أهلا ‹‹أنور›› ... مرحبا بك.

توقف ‹‹أنور›› فجأة ثم تابع المسير، وقد كان لا يتوقع أن يجد أحداً في هذا المكان وفي هذا الوقت من الليل، فقد تسلل في هذا الوقت ليصل إلى شيء في الجبل عادة ما يتفقدها من ليلة إلى أخرى ويخشي أن يراه أحد من ‹‹آل هاندسون››.

كان وجود ‹‹هاندسون›› في هذا المكان وفي هذا الزمان مصدر ضيق لـ‹‹أنور››، لكنه حمد الله على أن رآه قبل أن يصعد إلى الهضبة حيث مقصده.

أقبل إليه ‹‹أنور›› وقد هدأت خطاه الحثيثة ثم سلم على ‹‹هاندسون›› الذي أشار إليه بالجلوس إلى جانبه.

جلس ‹‹أنور›› إلى يمين ‹‹هاندسون›› وقد رسم على شفتيه ابتسامة أنس بعد ضيق، ثم بادر بالسؤال.

- سيد ‹‹هاندسون›› .. ما الذي جعلك تغادر مضجعك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ أتمنى أنك تستمتع بلحظات شاعرية تناجي بها نفسك.

زفر ‹‹هاندسون›› زفرة حرّا كادت تظهر كبده بين فكيه، ثم التفت نحو البحر ورمى في الظلام حصاة صغيرة، وقال بصوت خفيض:

- أشعر بضيق شديد يا ‹‹أنور›› ..

- لماذا يا صديقي؟

التفت نحو ‹‹أنور›› لعله يقرأ في الظلام صفحة وجهه لتنبؤه بما يعتلج في صدره وقال:

- أنا أعيش مكرها بين ‹‹كيم›› و‹‹نانسي›› ..

ثم زفر زفرة تكاد تلفظ كبده، ثم قال : ليت ذلك الأفعى لم يرجع، صدقني لقد استرحت منه كثيرا حين اختفى لكنه رجع بكل وقاحته ولؤمه.

- سيد ‹‹هاندسون›› .. لا تقل ذلك فأنت السيد في بيتك، وليس هناك أحد يستطيع أن يتحكم فيك ما دمت أنت السيد الأول في بيتك.

ابتسم بمرارة ثم قال بحسرة وسخرية:

- السيد الأول؟! ومن قال لك إنني السيد الأول؟ إن ‹‹نانسي›› هي السيدة الوحيدة، لقد أذللت لها نفسي أعواما طويلة، حين أوكلت إليها شؤوننا وانصرفت أنا لأعمالي وسفراتي، حتى استحكمت في حياتنا، بل وأدخلت الأغراب فيها وبقوة مثل ‹‹كيم›› الحقير، فهو ابن عائلة صديقة لعائلة ‹‹نانسي›› وكلهم من طينة واحدة، لقد فرضته علي في الشركة وفرضته علي في المركب وها هو يلتصق بنا من جديد في هذا الجزء المعزول من العالم ليزيدني همّا إلى همي.

ثم صرف ببصره نحو الغابة وقد تجهم وجهه وكأنه يكتم ملء رئتيه غازا خانقا.

ربت ‹‹أنور›› بكفه الحانية على كتف المسكين وقال ليهدئه:

- لا عليك يا سيد ‹‹هاندسون››، الصبر مفتاح الفرج ولن يستمر الوضع على ما هو عليه ‹‹إن شاء الله››.

فقال ‹‹هاندسون››:

- يبدو أن ‹‹كيم›› يريد أن يسكن معنا ويكتم أنفاسي، ولكن بدا لي فكرة اليوم بإبعاده عني وقد وعدته بذلك.

- كيف؟ وأين وبماذا وعدته؟

رفع ‹‹هاندسون›› يده وأشار نحو الجنوب إلى مرتفع صغير يشرف على الكوخين وقال:

- هناك .. سنساعده ليبني له كوخا ويعمر له أرضا.

صعق ‹‹أنور›› من هذا الاقتراح. وقال بسرعة:

- ما هذا الذي تقوله يا ‹‹هاندسون››؟ هناك؟! ألا تعلم أن تلك هي أرضي التي سبق وأن زرعت فيها، وان النبع الذي يغذي زرعي يجري خلالها والطريق إلى الغابة التي فيها معاشنا يطرقها.

ومع التفاتة ثقيلة قال ‹‹هاندسون››:

- وكيف ذلك يا ‹‹أنور››؟

- أنت ترى آثار عملي في الأرض، وماء النبع يمر من عنده وهو بالكاد يكفي زرعي، ولو امتلك ‹‹كيم›› هذه الأرض فسوف يغلق علينا الطريق الذي أسلكه كل حين لجمع الأعشاب أو الصيد، ولو أغلقه بالفعل فسوف نضطر جميعا إلى الالتفاف حول الجبل مما سيزيد من الوقت والجهد الذي أبذله أنا و‹‹نهاد››.

هز ‹‹هاندسون›› بكفه مهونا وقال:

- آه، لا عليك، نحن سنحدد له الماء الذي يحتاجه من النبع، وسنترك للجميع طريقا سالكا إلى الغابة.

وبسرعة ليغير مجرى الحديث سأل ‹‹أنور››:

- على فكرة، متى سيأتي أولئك الرجال بالمؤن فلدينا ملابس وأغراض سنقايضهم بها.

لم يتحمل ‹‹أنور›› البقاء بعد سماعه ذلك الوعد ‹‹البلفوري›› اللعين الذي وقع من نفسه موقع القبضة من العنق، إذ يبدو أن الفتنة بدأت تغرس أنيابها في طرف هذه الجزيرة الساكنة.

نهض مغضبا، لكن صديقه لم يأبه بغضبه فمصلحته الشخصية العظمى هي في التخلص من ذلك الوجه القبيح ‹‹كيم›› لذا ترك ‹‹أنور›› ينصرف حاملا بين جنبيه غضبا يكاد يحرق فؤاده.



لم يتأخر موعد تنفيذ الوعد الذي منحه ‹‹هاندسون›› لـ‹‹كيم›› فقد بدأ هو وأسرته يهيئون موقع الكوخ لـ‹‹كيم›› ويهيئون مزرعته على ضفاف مياه النبع الصافية على مرأى من ‹‹أنور›› وأخته، الذين عقرهما الخوف أو التردد فلم ينبسا ببنت شفة بل اكتفى ‹‹أنور›› برفضه استخدامهم فأسه ومسحاته البدائيتين وجعلا يضربان كفاً بكف.

وصارت عقدة الخوف من الاحتلال تنبش ما حفر في أعماقهما مما ورثاه من القهر الذي لاقاه قومهما على مدى قرون.

لم يكن ‹‹أنور›› ليسكت فقد كان يتظاهر أمام أخته بأنه سينتفض ويوقفهم أو على الأقل سيجعل شروطا تحفظ له حقه في الماء والطريق، لكن أخته كانت تهدئ من ثوراته المفتعلة.

ولم يكن ‹‹كيم›› صاحب المصلحة أكثر النشيطين والمتحمسين في العمل لكن الأسرة كلها بقضها وقضيضها سخَّرت كل إمكانياتها لخدمته، أما هو فكان كالسيد الذي يخطط ويأمر وينهى.

وبينما هم في الأيام الأولى التي فيها القهر يطحن فؤاد ‹‹آل أنور›› وفي ضحى يوم مشمس إذ اخترق صوت الطيور وهمهمة العاملين طقطقة محرك من بعيد.

رفع ‹‹هاندسون›› رأسه وهو يعمل في مزرعة ‹‹كيم›› وقال:

- صه إنني أسمع صوت محرك.

ثم قذف بالفأس الذي في يده وانطلق نحو الشاطئ ولحقه الباقون نحو البحر وكان ‹‹أنور›› وأخته أول السابقين.

بدا لهم من الشمال من خلف الجبل مركب أبيض ليس بالكبير ولا بالصغير قد علا ظهره عدد من الرجال الذين يلبسون القمصان الملونة ويأتزرون بأزر مخططة طولا وعرضا بألوان زرقاء وسوداء وحمراء.

اشتد وجيب قلوبهم وبدت لهم أنوار بلادهم تتلألأ خلف المركب، وكادت تلك القلوب تخرج لترفرف فوق ذلك الأمل القادم الذي يعتبر عندهم في تلك اللحظة الفاصل بين السعادة والبؤس والحياة والممات، رفعوا أيديهم والابتسامات والضحكات والفرح تكاد تشقق أشداقهم.

اقترب الأغراب ومع ارتفاع أصوات أصحاب الجزيرة الذين يحاولون التعبير عن الترحيب والفرحة.

إلا أن أصحاب القارب لم يظهروا أي ابتسامة مجاملة، واستمروا في الاقتراب حتى لم يبق بينهم وبين طرف الجبل الذي انغرس على البحر إلا بضعة أمتار توقفوا.

كان أحدهم واقف في وسط القارب يقبض بيده على بندقية أوتوماتيكية، أما البقية فقد أنزلوا السلم ونزل ثلاثة منهم.

ما زال الفرح يخفق في قلوب الجميع وهم يستقبلون الثلاثة بالترحيب لكن تجهم وجوههم لم يبشر بخير.

وصلوا إلى اليابسة، وقالوا بصوت عال وهم يوجهون الحديث إلى ‹‹أنور›› بلغه إنجليزية مشوهة.

- عشب .. عشب .. أزهار.

قال ‹‹أنور›› بنبرة ودودة خفيضة لقائد المجموعة :

- أيها الرجل الطيب .. كل هذه الأعشاب لكم بالمجان، فقط خذونا معكم إلى أي جهة فيها أناس فقاربكم هذه المرة كبير.

أخرج الباقون من سكان الجزيرة قهقهة عفوية مجاملة وهزوا رؤوسهم مؤيدين ومتوددين للرجل. وأقترب ‹‹هاندسون›› بوجه سمح وتلطف بالغ وقال للرجل:

- أرجوكم أيها الكرماء نريد فقط وقودا لقاربنا. وسنعطيكم من المال الذي تريدون.

ولكن بدا أن الرجل لم يفهم ما يقولون، ويظهر أنه مبرمج على شيء معين فصرخ فيهم وهو يقول:

- هيا هاتوا .. العشب .. العشب .. الأزهار.

حاول ‹‹أنور›› أن يشير بيده طالبا منه اصطحابهم، بينما اقترب ‹‹هاندسون›› يشير عبثا لإفهام الرجل لكنه دفعه بقوة كاد يسقط منها على ظهره واتجه على الجزيرة وهو يصرخ:

- لا .. لا.. هيا .. عشب .. عشب .. أزهار.

أخذت ابتسامات الفرح التي ارتسمت على الوجوه تنطفئ، ونور الأمل يذبل، وبدأ اليأس يعود بقسوة إلى النفوس.

تباكت ‹‹هاندسون›› و‹‹نانسي›› و‹‹نهاد›› لكن قلوب الرجال كان أشد من الصخر.

وبصرخة وقحة انتهي الجدال والتذلل وبلغة إنجليزية مكسرة:

- اخرسوا، هيا هاتوا العشب والأزهار.

وكان مما ليس منه بد. اتجه الجميع في غمرة بكاء حزين يحملون العشب إلى الشاطئ، وينزلون من القارب أكياس الأرز الأسمر الرديء وبعض الملابس لـ‹‹أنور›› و‹‹نهاد›› وعنزة حلوب ودجاجات. وما إن انتهى التحميل والتنزيل وركب القساة قاربهم حتى أخرجوا رجلا مقيدا على

سطح القارب ثم دفعوه بقوة نحو الماء ثم حركوا قاربهم ليغيب متجها نحو الشمال ليبتلعه أفق المحيط البعيد ويغيب معه صوت طالما تمنى أهل الجزيرة أن يسمعوه منذ وصولهم على هذه الجزيرة.

أما الرجل الساقط إلى الماء فقد هرع إليه ‹‹هاندسون›› و‹‹جو›› و‹‹أنور›› وحملوه وهو يئن ويصيح من رضوض في ساقه من جراء السقوط على الصخور.

أخذوه إلى كوخ ‹‹أنور›› الذي أوصى أن يحمل إليه حيث يعالج من قبل الدكتورة ‹‹نهاد››.

أخذ ‹‹أنور›› المئونة التي ابتاعها بأعشابه أما ‹‹آل هاندسون›› فقد قوبلت أغراضهم التي ظنوا أنها ستسعد الرجال بالرفض فلم يكونوا يريدون إلا الأعشاب الطبية.

لكن ‹‹أنور›› قسّم الكثير منها لجيرانه فلم يكن ليدعهم يتضورون جوعا يوما من الأيام ولن يدعوه هم يأكل ويشبع وهم في فقر مدقع، كما أنه لم ينس أن يعطيهم الدجاجات والعنزة هبة لهم، أما الغريب الجديد فقد خضع للعلاج ببعض المطهرات والضمادات التي أسعفه بها ‹‹هاندسون›› من مركبه الراسي.

تبين لهم أن الرجل عربيٌ كذلك، وكان يعمل صيدليا ومن سوء حظه فقد خضع لإجراءات العقد الذي انخدع به ‹‹أنور››، ومرّ على الأطوار التي مر عليها إلا أنه ليس مثل ‹‹أنور›› إذ لم يرفض التطوير والبحث فقد عمل معهم بجد واجتهاد واستطاع أن يكسب رضا مرؤوسيه ويكسب أموالاً طائلة لكنه كان ثرثارا كلما هاتف أحداً من أصدقائه أو أقاربه في بلده تعدى الحدود، وقد سجل له أمن المصنع حديثا مع أحد أقاربه وهو يتحدث عن طبيعة عمله عدة مرات ورغم التحذيرات القوية ضده لكنه لم ينته فقذف به في الجزيرة مع من سبقه جزاء على ذلك.

كان هذا الخبر مدعاة للاشمئزاز منه من قبل ‹‹أنور›› و‹‹نهاد›› إلا أنهما قدّرا له صدقه وندمه الشديد على خدمته لهؤلاء الأشرار.

رأى ‹‹أنور›› و‹‹نهاد›› في الرجل خير معين ضد الاضطهاد الذي بدأ موجه يطغى على حياتهما، ورأيا فيه معيار توازن للقوى في هذه الجزيرة النائية وخاصة أن الرجل يدّعي أنه بطلٌ في لعبة التايكوندو وأنه رياضيّ من الطراز الأول.

تماثل الرجل الذي تبين أن اسمه ‹‹سالم›› للشفاء العاجل.

كانت بشرته نحاسية، يميل إلى القصر، بل هو أقصر رجال الجزيرة لكنه ضامر القامة، مدملج الأعضاء شديد الأوصال قد أبانت الرياضة على جسده قوته.

صغير العينين، غليظ الأنف، فوقه فم واسع قليلاً وله ذقن مدبب في وجه صغير إلى حد ما شعيرات لحيته خفيفة مع شاربه خفيف أيضاً، شعره أسود مجعد إلى حد ما.

أكثر ‹‹سالم›› من الشكر والدعاء وكانت حركته الرياضية الدؤوبة موقع إعجاب في نفوس الشباب والفتيات، فقد كان يهرول كل صباح بعد صلاة الفجر على رمل الشاطئ حتى إذا ارتفعت الشمس أخذ يمارس تمارين التايكوندو بقسوة عجيبة.

كان أمله في الخروج من الجزيرة قوياً، فهو يذكر دائما حاجة المصنع لخدماته. لكنه يعد بأنه سيهرب من هناك بعد عودته، حرص على الصلاة جماعة مع ‹‹أنور›› في مصلاه المكشوف، وكان الرفيق الملاصق له في تحركاته في جمع الأعشاب والصيد.

ورغم استمرار ‹‹آل هاندسون›› في بناء مستعمرة ‹‹كيم›› إلا أن الأمر بدأ يهون بالتعود في نفس ‹‹أنور›› حتى أصبح الأمر طبيعيا كما هو الحال عند عامة الناس إذا اغتصبت حقوقهم وسكتوا عليها، وهبت عليهم الرياح فحنوا الرقاب لها ولو لمرة واحدة وخاصة أن ‹‹هاندسون›› نفذ وعده

بأن ترك سبيلا للوصول إلى الغابة وشق أخدودا صغيرا للماء لأن مزرعة ‹‹كيم›› ما زالت صغيره ولا تحتاج أكثر منها .

وبدأت الحياة تجري بانفصال بين البيتين وقل الاحتكاك بين ‹‹نانسي›› و‹‹أنور›› فلم تعد تناقشه كثيرا في الدين لكنها انشغلت بـ‹‹كيم›› الذي أصبح الشوكة في حلق ‹‹هاندسون›› ولم ينفعه إقامة مستعمرة له، فقد كانت السيدة ‹‹هاندسون›› أكثر تعلقا به.

هيئ ‹‹لهاندسون›› أن علاقة عاطفية بدت تتسلل بين الاثنين رغم الفارق الكبير في العمر وأخذ ‹‹هاندسون›› المسكين يتجرع مرارة الغيرة التي تحرق فؤاده يوما بعد يوم وهو لا يألوا جهدا في تبرير هذه العلاقة لنفسه أنها علاقة صداقة حميمة مبنية على مشتركات دينية.

أخذت صداقة ‹‹كيم›› و‹‹نانسي›› تنحو منحى آخر، فقد أخذت ‹‹نانسي›› وبكل وقاحة تحقر من ‹‹هاندسون›› أمام الجميع حتى أمام أولادهما، بل لقد كانت تشيد بـ‹‹كيم›› وتطلعاته وتديّنه ونظراته الروحية السامية التي يفقدها ‹‹هاندسون››.

أما ‹‹هاندسون›› فكان يصارع الجنون والقهر، فليس في الجزيرة من يستطيع أن يحميه من هذه الرعناء حتى ولديه اللذين يعتبران حياة أمهما لم تتغير كثيرا، ورغم أن ‹‹سوزان›› تتعاطف كثيرا مع أبيها الذي بدا ذابلا مستكينا أمامها إلا أنها لم ترغب في المصادمة مع أمها فهي تعرف النتيجة مسبقا لذلك فقد آثرت الحياد كجو.

كان ‹‹هاندسون›› يفرغ ما في قلبه على مسامع ‹‹أنور›› و‹‹سالم›› وحتى ‹‹نهاد›› التي تسمعه يشكو ويتألم، وكانت تكاد أن تجن من بلادته وعجزه المفرط، لكنها كانت تلتزم بالصمت، أما ‹‹أنور›› وصاحبه فقد كانا يعطيانه بعض النصائح التي توقد حميته في مجلسهما، لكنه ما إن يعود وينظر إلى وجه ‹‹نانسي›› حتى تنطفئ تلك الحمية.

ومرت الأيام ثقيلة ثقل دم ‹‹كيم›› و‹‹نانسي›› لكن الحياة في الجزيرة لم تتوقف بل زادت أهلها نوعا نادرا من فن الترشيد في استهلاك المواد الغذائية حيث أصبح الجميع يأكلون من فواكهها ويشربون عصائرها ويطبخون بعض أعشابها بينما لا يطبخون من الأرز إلا النزر اليسير يساعدهم في ذلك اللبن والبيض وبعض الطرائد.

وبتشجيع من ‹‹نانسي›› الحديدية اكتسب ‹‹كيم›› ثوب الغرور إلى الحد الذي أظهر غطرسته حتى على ‹‹أنور›› و‹‹سالم›› بكل وقاحة.

كان الاثنان يعللان أنفسهما بالفرج فيصبران ويمدان حبل العفو ويسكتان للضيم، وكأنهما لا يعلمان أن الحلم على اللئيم حمق.

كان حلمهما عليه بمثابة وقودِ للؤم والخسة، فقد ظن أنهما خائفان منه ومن سطوته.

ومرت أسابيع طويلة بعد شفاء ‹‹سالم›› ولم يأت أحد لينجده ويعيده إلى مصنعه حيث كان يأمل فرضخ للواقع المر، ونشط في مساعدة ‹‹أنور›› وارتاحت ‹‹نهاد›› المسكينة التي دب فيها الملل من كثرة ما تسرح إلى الغابة وتجمع العشب وتتعرض يداها الناعمتان للشوك ورجلاها الدقيقتان للالتواء من حين لآخر.

وقد وجد ‹‹سالم›› صخرة مائلة مظللة في عرض الجبل جنوب كوخ ‹‹أنور›› فقام هو و‹‹أنور›› بإعدادها وإغلاق بعض جوانبها بالأعواد والقش فأصبحت كالكهف الدافئ، أما فراشه فقد تبرع به ‹‹هاندسون›› وقد كان - بالطبع -أفضل من ذلك الذي ينام عليه ‹‹أنور›› وأخته إلا أن عطفه غلب فأعطاه ‹‹نهاد›› وأخذ فراشها القاسي.

كان ‹‹سالم›› مثالاً في النشاط والحيوية والقوة وروح الدعابة كذلك، وبعد طول مجالسة، بدأ ينظر ‹‹لأنور›› من زاوية روحية فأعجبته صلاته وذكره وسمته فأخذ يقلده، لكن التقليد كان ظاهرا على سلوكه التعبدي.

ذات ليلة وبينما هما يتسامران على الشاطئ وفي صفوة نفسية عابرة قال ‹‹سالم›› لـ‹‹أنور››:

- ‹‹أنور›› ... إنني أريد أن أتوب إلى الله وأتدين وأصبح رجلا صالحا.

تهللت أسارير ‹‹أنور›› وقال بابتسامة متهللة:

- متدين؟ صالح؟ أنت كذلك ‹‹إن شاء الله›› يا صديقي.

- لا .. لا .. أقصد أن أكون مثلك متدينا حقيقيا أصلي مثلك وأقرأ القرآن وأذكر الله كثيرا.

خرجت ضحكة قصيرة من ‹‹أنور›› وقال:

- أتظنني متدينا كما ينبغي؟! كلنا مقصرين، ولكن يجب علينا أن نجتهد في الطاعة عبادة وتعاملاً، الدين هو شامل في كل نواحي الحياة.

ندت تنهدة من صدره وهو ينظر إلى ظلمات البحر وقد أوسع بابتسامة رضا ظاهرة، ثم قال:

- هنيئا لك يا ‹‹أنور›› وأنت تحمل هذا القلب الطاهر.

ثم استأذن وانصرف.

<p></p>



في غمرة الإعداد ورؤية النجاح بدت أرض ‹‹كيم›› تخضر وبدأ نتاج جهده وجهد ‹‹آل هاندسون›› يظهر للعيان.

اغتاظ ‹‹هاندسون›› حينما رأى أن ‹‹سالماً›› اختطف صديقه ‹‹أنور›› بل ظن أن ‹‹أنور›› استغنى عنه أو قلاه بعدما رآه لا يفارقه في جمع الأعشاب والسمر والصيد.

وهنا كمنت المشكلة، فقد غفل ‹‹أنور›› عن صديقه القديم وتركه يصارع القهر من تقارب زوجته و‹‹كيم›› حتى أصبح يستمرئ الحال ويجامل ويداهن ويتظاهر بالرضا والقبول لما آلت إليه الحال فصار لهما تبعا مع ما كان يحمل بين جنبيه من همّ المصير، ويتجرع غصة الجفاء من صديقه ‹‹أنور›› كما يبدو له.

لقد فشل ‹‹أنور›› في التعامل مع ‹‹هاندسون›› في هذه الظروف الصعبة وتركه بلا خيارات أمام المد التسلطي لـ‹‹كيم›› الذي صار يتغلغل وبقوة في عقر داره.

فما كان من ‹‹هاندسون›› أمام ضغط الإهمال والشعور بعدم الأهمية وفي مواجهة تيار مغاير له تقوده ‹‹نانسي›› و‹‹كيم›› وينقاد له ‹‹جو›› و‹‹سوزان››. استعد للتنازل كثيرا رغم عدم قناعته بما يقوم به.

في عصر يوم ظللت فيه الغيوم الخفيفة أرجاء الجزيرة وما حولها من المياه، ونسائم الهواء العليل يداعب لحية ‹‹أنور›› وشعيرات رأس ‹‹هاندسون›› جلسا مع ‹‹سالم›› تحت صخرة كهفه،

ودارت الأحاديث بينهم لاحظ ‹‹أنور›› من خلالها أن لغة ‹‹هاندسون›› قد شابها شيء من لغة التكبر أو الغطرسة التي لم يعهدها عليه من قبل.

حاول ‹‹أنور›› أن يهيئ نفسه للسماع والفهم فلربما كانت الخارطة ليست هي الواقع كما يقولون .. ولعل الخلل في السماع لا في المنطق، لكن نظرات ‹‹سالم›› المستغربة أكدت أن ‹‹هاندسون›› يرسم خطوطا جديدة، التفت ‹‹أنور›› بوعي إلى البحر وقذف حصاة نحو الشاطئ ثم قال مختبراً.

- سيد ‹‹هاندسون››، أتمنى أن تكون قرير الحال مع الوضع الجديد الذي بدأ يتشكل حول منزلك؟!

أظهر ‹‹هاندسون›› انفعالا مفضوحا وقال:

- ولم لا أكون قرير الحال وأنا في أسرة متكاملة، زوجة وأولاد وأصدقاء أقوياء.

ثم أشار بيده نحو الجهة التي فيها يستقر الكوخ التعيس لـ‹‹كيم››.

ضحك ‹‹أنور›› ضحكة قصيرة وقال:

- أعانك الله يا ‹‹هاندسون››، إنني أشعر بما أنت فيه لكن الصبر مفتاح الفرج.

نظر ‹‹هاندسون›› إليه بسخرية، ثم قال:

- مسكين أنت يا ‹‹أنور›› لكنني لا ألومك فأنت واحد من أمة لم تعد تعرف كيف تقرأ الآخرين كما ينبغي.

ثم قام وأدار نظرة جامدة في وجهي جليسيه وفتح قبضته لتتساقط حبات الحصى، ثم انصرف يحث الخطى نحو كوخ ‹‹كيم›› لماذا؟ لا أدري، لكن ‹‹أنور›› أرخى ظهره وأسنده على

الصخرة خلفه وهو يشيّع ‹‹هاندسون›› وقد تملكه الذهول وعلت ابتسامة فاترة على شفتيه المتشققتين.

كان ‹‹سالم›› يلاحظه باهتمام وكأنه ينتظر منه تعليقا هاما حول سلوك ‹‹هاندسون››.

وبالفعل فقد قال وما زالت عيناه تبتلعان كوخ ‹‹كيم›› من بعد:

- لقد تغيّر سلوك ‹‹هاندسون›› أسأل الله أن يجنبنا سوء العاقبة.

فقال ‹‹سالم››:

- أتدري؟ لقد أخطأت أنت بالفعل، بل أخطأنا نحن الاثنان حينما تركناه وحيداً ولم نحتويه الفترة الماضية.

فقال ‹‹أنور›› بصوت غاضب:

- وهل عرفنا كيف نحتويه، ولم نفعل؟!

- يا أخي على تركناه يمضي أيامه مع ‹‹كيم›› دائما حتى أصبح لا يفارقه، ثم أدرك بعد أن جفوناه أنه إذا كسبه كسب زوجته، وإذا كسب زوجته كسب أولاده.

ابتسم ‹‹أنور›› ابتسامة أسيفة وقال:

- صدقت، وبصراحة فإنني أخاف عليه من هذا التقارب، بل وأخاف على من في هذه الجزيرة من سوء العاقبة.

زاد ‹‹سالم›› في تضييق عينيه وقال مبتسما:

- الدنيا مصالح يا صاحبي، ومصلحتهم عندنا أكثر، فلدينا الأعشاب التي نشتري الطعام بها لنا ولهم، ثم إن مجرى النبع هو ملك لك في الأصل، و‹‹كيم›› ليس له منه إلا فرع واحد، وهذا الذي اتفقتم عليه كما أعلم.

ثم أردف ممازحاً:

- لكن لا تخف فلو نشبت بيننا وبينهم حرب قتالية فلدي قوة قتالية ستقلب موازين القوى.

ضحك ‹‹أنور›› وقال:

- وماذا ستفعل لو اشتركت ‹‹سوزان›› في المعركة؟

فرد عليه وهو يضحك:

- إذا فعلت فقد خسرنا المعركة حتماً.

ﮋﮊﮋﮊﮋﮊﮋ

لم تفارق ‹‹أنور›› كلمات ‹‹هاندسون›› التي وعد فيها ‹‹كيم›› بموقعه الخطير الذي أسكنه فيه، رغم أنه هو الذي أعانه في بناء مستعمرته.

لم يدرك ‹‹أنور›› أن مسلمات ‹‹نانسي›› هي التي فرضت وجود ‹‹كيم›› في هذا المكان الهام وأن ‹‹هاندسون›› نفذ رغبة ‹‹نانسي›› رغبة في إبعاده من جوف كوخه.

وبخبث ودهاء جعل ‹‹كيم›› مع مرور الأيام يبدي لين الجانب ‹‹لهاندسون›› وخضوعه لطلباته، فقد لبس إهاب الحمل الوديع فجعل يقدم خدماته لـ‹‹آل هاندسون›› بطريقته الخاصة، وفي الجانب الآخر يخوفهم من غدر الجيران الذين يسكنون في الطرف الشرقي منهم، ويبدي خوفه وحاجته الماسة إلى القوة التي تمكنه من الدفاع عن نفسه فيما لو جاء ‹‹أنور›› وصاحبه ليلا لاغتياله.

كان يبكي ويرتعد أمام ‹‹نانسي›› كلما سنحت له فرصة، وهو يعلم أن هناك سلاحا يخبئه ‹‹هاندسون›› في المركب في مكان سري لا يعلمه إلا هو.

ورغم تردد ‹‹نانسي›› في إعطائه شيئا من السلاح حفاظا على التحكم في موازين القوى إلا أنها اقتنعت أخيرا بمشروعية طلبه.

لكنها لم تفلح في إقناع ‹‹هاندسون›› سوى بإعطائه سكينا كبيرة فقط للدفاع عن نفسه فخبأها، وقد انتفخ صدره زهوا وعظمة بهذا الإنجاز الفريد في الجزيرة.

وفي فجر أحد الأيام المتشابهة نهض ‹‹أنور›› فرفع صوته بالأذان كعادته منذ أن وصل إلى هذه الجزيرة لكن صراخا عصبيا خرج من كوخ جيرانه، إذ خرجت ‹‹نانسي›› تعرك عينيها أمام بابها وهي تقول:

- ما هذا الصهيل؟! ألم يأن لك أن تتوقف من إزعاجنا؟!

انتهى ‹‹أنور›› من الأذان ثم أقبل على صلاته، ولم يرد عليها بكلمة واحدة، فقد شعر بأنه مضى على المرأة أيام لم تسابّ أو تشاتم.

أقبل ‹‹سالم›› وهو يسمع صراخ ‹‹نانسي›› فلم يعرها اهتمامه فصلى مع ‹‹أنور›› صلاة الفجر ثم تمنطقا بحزاميهما وعصبا رأسيهما ثم حملا كيسيهما على ظهريهما وانطلقا متوكلين على الله إلى الغابة، وكانت المفاجأة أن وجدا الطريق الرئيسي للغابة والذي يمر بالقرب من مزرعة ‹‹كيم›› قد أغلق بأخشاب وبعض الأشجار، غضب ‹‹أنور›› غضبا شديدا وشرع هو و‹‹سالم›› في إزاحة الأغصان والأشجار وهما يحدثان نفسيهما بأن شرا قد اقترب.

وما إن انتصفا في العمل حتى خرج عليهما ‹‹كيم›› فجعل يصيح ويقذفهما بالحجارة التي سبق وأن قربها من كوخه وهو يقول بصوت مرتفع فيه شيء من البكاء المصطنع:

- ماذا تفعلان؟ ماذا تفعلان؟ ألأنني ضعيف ووحيد؟!

ارتفع صوته في حضرة ذهول الاثنين وهما يتفاديان حجارته ويحاولان تهدئته، لكن دقائق قليلة لم تمض حتى أقبلت ‹‹نانسي›› و‹‹جو›› بهراوتين كبيرتين وتبعهما ‹‹هاندسون›› يعرك جفنيه وهو يقول:

- ماذا حصل؟ ماذا حصل؟

انطلق ‹‹كيم›› إلى ‹‹نانسي›› وسقط عند قدميها وانخرط في البكاء مفتعلا شدة الخوف والشعور بالقهر والخذلان أمام هذين الطاغيتين.

ذهل الرجلان أمام هذا التمثيل وهذا البكاء الذي يخرجه من أعماقه، وهو يقول:

- آه يا سيدتي، لقد تهجم عليّ هذان الوحشان، لقد كانت أعينهما تقدحان شررا، إنني أشعر بالخوف والهلع.

ويسكت قليلاً وبعد نظرة خبيثة بطرف عينه نحو ‹‹هاندسون›› قال:

- اعذريني سيدتي، فأنا منذ أن ضربني السيد ‹‹هاندسون›› وأنا لم أعد أستطيع الدفاع عن نفسي.

جعلت ‹‹نانسي›› تمسح على رأسه عند ركبتها وزفرات الغضب تكاد تشقق منخريها، وهي تنظر بكل معاني الحقد في الرجلين المسكينين.

وفي لحظة نظرت إلى ‹‹هاندسون›› وهزت رأسها فطأطأ رأسه.

لقد أخذت كلمة ‹‹كيم›› منه أشد مأخذ، إذ تذكّر ضربه إياه ضربا مبرحا حينما كان صغيرا بسبب سرقته ساعته الثمينة، ولطالما تؤنبه ‹‹نانسي›› على ذلك اليوم من وقت لآخر.

أراد ‹‹أنور›› شرح الموقف ‹‹لهاندسون›› فقال:

- سيد ‹‹هاندسون›› لقد قطعت وعدا لـ‹‹كيم›› بإعطائه أرضا كنت أملكها في الأصل، ثم أسكنته فيها، فسكتُّ على مضض، ووعدتني بأن يكون الطريق سالكا إلى الغابة، وأنت الآن ترى ما صنعه ‹‹كيم›› بإغلاقه الطريق علينا، ألا ترى أن في ذلك ظلما؟!

التفت ‹‹كيم›› وهو ما زال كالصبي باركا على ركبتيه عند قدمي سيدته وقال وهو ما زال في تنهد بكائه:

- نعم لقد أغلقت الطريق لأنه يخترق زرعي، ولأنهما يزعجاني كثيرا حينما يمران على هذا الطريق الذي يقع عليه بيتي، فإذا ما مرا في الفجر أيقظاني من النوم وعاودتني كوابيس الظلم وضرب السيد ‹‹هاندسون››.

وبنظرة سريعة إلى ‹‹هاندسون›› ثم أخذ بثوب سيدته وقال:

- أرجوك يا سيدتي فأنت أقوى مخلوق على هذه الجزيرة تستطيع أن تنصرني من الظلم.

انتفخ صدر ‹‹نانسي›› بغرور، فقد شعرت فعلا بأنها أقوى الجميع، وهزت رأسها مجيبة طلبه وقالت موجهة حديثها ‹‹لأنور›› وصاحبه:

- اسمعا أيها المغروران، ليس لكما طريق من هنا .. ابحثا عن طريق آخر، ودعا المسكين يعيش في سلام.

نظر ‹‹أنور›› بسرعة إلى ‹‹هاندسون›› لعله يسمع منه ما يرفض هذا القرار العاطفي المتعجل الظالم، لكن ‹‹هاندسون›› نكس رأسه.

انشق فم ‹‹أنور›› بابتسامه مرّة ساخرة وهو يلاحظ وجه صاحبه وقد احتقن دما وكأن النار قد قذفت جحيمها من قلبه إليه لكنه هز رأسه مهدياً إياه.

ثم وجه حديثه إلى ‹‹هاندسون››:

- اسمعوا أيها الجيران، إنكم تعلمون علم اليقين أنني أنا من سبقكم إلى هذه الجزيرة وأنني أنا صاحب الأرض التي اغتصبتموها لهذا الرجل الذي أعياني فهم حالته، فمنذ أن جاء وهو يهدد ويزمجر ويرتعد، ولست بالغبي الذي لا يفهم هذا السلوك التحايلي الذي يستغل به عواطفكم وقيمكم.

ولكنني أحذركم وأحذره وأحذر نفسي أيضا من الانحدار إلى هاوية الانشقاق، فنحن وحدنا في هذه الجزيرة التي لن يعمرها إلا الوئام والسلام والعدل والمساواة.

وليس لواحد منا أكثر من كفايته منها، كما أنه ليس من الدين أي دين ولا من الأخلاق ولا من الإنسانية أن يعيش أحدنا حياة رغد ورفاهية والآخر عكس ذلك مضطهد ومظلوم.

والعقل أيضا يرفض ذلك لأن الجائع لن يدع الشبعان يأكل وهو يموت جوعا، وأن المضطَهَد لن يدع الظالم يرتع في مظلمته حتى النهاية.

لذا أرجوكم دعونا نعيش بسلام.

أرجوكم دعونا نعيش بسلام، اتركوا ما هو مكتوب في قلوبكم أو في أوراقكم ودعوا السلم يسود جزيرتنا.

ثم وجه كلامه إلى ‹‹نانسي›› وقال:

الأمر في تنفيذ وصايا رؤياك المقدسة أو كتبك العتيقة يحتاج إلى عقلانية أكثر فنحن في عصر جديد متحضر يحفظ للإنسان حقوقه مهما كان وإلا فإننا جميعاً سنعيش في تعاسة حقيقية.

ثم نظر بقسوة إلى الجميع بما فيهم ‹‹جو›› الساذج الذي كان متكأ على كتف أخته وفي يده عصاه الغليظة، وهو يهز رأسه مبتسما بتحد وسخرية.

ثم انصرف وقد أفرغ شحنة هائلة كانت مكتنزة في صدره.

وهكذا انتهت حرب وشيكة ختمت بنكتة سياسية لم يكن لها في مجال الطرح داعي غير ما أقصده.

ﮩﮩﮩﮩﮩﮩ



في عصر اليوم الثاني جلس ‹‹أنور›› وصاحبه خلف الجبل وأمام البحر يناقشان ما وصل إليه الحال وما عسا هما أن يفعلا بهذه الفتنة التي بدأت تظهر قرونها.. فالوضع قد ينفجر بين لحظة وأخرى، و‹‹كيم›› لن يتنازل عن مطامعه التي سخر ‹‹آل هاندسون›› لتحقيقها، وموازين القوة بين الطرفين غير متوازنة فـ‹‹آل هاندسون›› يتجاهلون خطورة الوضع ويميلون الميزان نحو ‹‹كيم›› باعتقاد منهم أنه الذي سيحقق لهم مكاسب أكثر أو ربما سيعطي ‹‹نانسي›› ارتياحا روحيا بتفوقه، متناسين ما قدمه الطرف الآخر من خبرات وتسهيلات في بداية نزولهم هذه الجزيرة كما تناسوا ما قدمه من طعام وعنزة ودجاجات لهم بما يجمعه من الأعشاب، بالإضافة إلى ما قد يسببه لهم من أضرار في حالة ما إذا وجد نفسه مضطراً لذلك.

وبينما هما يتجاذبان الأحاديث والخواطر تسابق الألفاظ إذ بـ‹‹سوزان›› تقبل من الغرب يلاعب الهواء الطلق فستانها الزاهي الذي لم ير عليها إلا اليوم، فقد كانت تكثر من لبس البناطيل الجنزية والقمصان الفضفاضة لكنها اليوم ارتدت فستانا ثمينا كانت بالتأكيد تخزنه ليومه.

أقبلت على الشاطئ تلتقط الأصداف ثم ثقف بها نحو البحر وتنسف شعرها الذهبي إلى ظهرها كلما عبثت به الريح وغطا وجهها.

وكأنها تنشد أغنية أخذت بتلابيب قلبها، التفت الاثنان نحوهما، وقد هفا إلى قلبيهما الشابين شيء من نسيم الحياة بعد جفاف وبؤس.

وبينما هما يتأملان إبداع الخالق في جمال المرأة ودلالها، إذ سمعا نغمة عذبة وصلت إلى قلبيهما المنتعشين.

- هاي.

تسابق صوتيهما للرد على التحية بأجمل وأرق وأعذب من تحيتهما:

- أهلا ‹‹سوزان›› .. أهلا.

منحتهما ضحكة لم يسمعاها من قبل، فاجتاحت فؤاديهما، واستمرت تتمايل بخيلاء الطاووس وغنج العارضات، وبينما هما بأبصارهما يشيعانها وقلب ‹‹سالم›› يختلج اختلاجا يكاد يطير خلفها إذ انتبه ‹‹أنور›› فاسترجع، وصرف بصره نحو إبريق الحليب فسكب لنفسه كأسا باردا، وهز كتف صاحبه بكفه وقال:

- هيه؟ مابك؟ أنظر إليّ.

أدار ‹‹سالم›› رأسه وقد أشرق وجهه بابتسامة فرح وتنهد تنهدة كادت تذيب فؤاده وقال:

- ألم تر ما رأيت؟ أين كانت؟ وأين كنا؟ لماذا لم نرها بعين الحقيقة قبل هذا اليوم؟!

ضحك و‹‹أنور›› وقال:

- لماذا لا تعتقد أننا كنا نراها بعين الحقيقة أما اليوم فنحن نراها بالعين المزيفة؟!

- لا والله .. إنني اليوم أراها بعين الحقيقة وعين القلب والروح، أرأيت جمالا كهذا يا ‹‹أنور››؟

وما زال ‹‹أنور›› مبتسما قال:

- استعذ بالله من الشيطان الرجيم ودعنا منها الآن.

نظر إليه وقد زاد في تضييق عينيه الصغيرتين ثم قام ونفض مؤخرة بنطاله وانصرف ولم يستأذن ولحق بـ‹‹سوزان›› مسرعا.

اختلج في قلب ‹‹أنور›› غيرة خفية وكأنه تمنى أنه هو الذي لحق بها.

وجعلت الأوهام تزاور مخيلته، بل وتواردت الغيرة تعتلج إلى قلبه على صاحبه الذي سبقه إلى حسناء الجزيرة.

شعرت ‹‹سوزان›› بخطى حثيثة خلفها، وعلمت أن السمكة تاقت إلى الطعم فأسرعت في خطوتها وتفننت في غنجها، وهو يتابعها بعينين مشوقتين، تدق على أوتار قلبه الذي يزداد خفقانه كلما ظن أنه اقترب منها، وما إن ظنت أنه قد ابتعد عن المضارب، أطلقت ضحكة نفثت فيها كل ما جمعته من إغراء وفجور.

فاختلج قلبه وغمرت روحه شهوة حتى نسي نفسه وأغلق على الخوف كل أبواب ونوافذ قلبه، ولم ير أمامه إلا خيالاً ساحراً تملّك كيانه كله وقاده إلى أحضان المجهول.

أراد أن يتكلم فتلعثم لكنه تنحنح وهمهم بضحكة ساذجة، فالتفتت نحوه وكانت المفاجأة التي لم تتوقعها.

لقد أرادت ‹‹أنور›› لكن الله أراد ‹‹سالماً››، فعلمت أن ‹‹أنور›› لا فائدة منه وأن ‹‹سالماً›› هو العوض فقد يملأ فراغها القاتل، وربما تستطيع أن تحقق مآربها خلاله فتداركت تجهم وجهها بابتسامة عذبة، فلما رآها استحرّ الإغراء ونشط وتشجع وطرد التردد وقال بصوت لا يخلو من نبرة الفرح الخائف:

- مرحبا ‹‹سوزان››. كنت أسير و....

أدركت ‹‹سوزان›› ارتباكه، فرفعت حاجبها وسلت ابتسامة ساحرة تدفقت بين شفتيها الحمراوين، وهزت رأسها تشجعه على الحديث، فانطلق لسانه، وقال بضحكة الخجلان:

- اقصد، لقد رايتك وحدك تتنزهين على الشاطئ فقلت في نفسي: لعلها لا تمانع أن أسير معها وأحادثها.

وبينما هي تضحك بدلال قالت:

- نعم، لقد مللت من العمل في الحقل والجلوس في الكوخ، فرغبت أن أسير على الشاطئ، يعجبني كثيرا أن أرى شابا وسيما مثلك يشاركني الحديث والتنزه.

ثم اقتربت منه ومدت يدها لتصافحه، وفيما هو يمد يده ليصافحها ارتعدت جوانحه وشعر كأن وقوداً صُب في جوفه، فاشتعل بلا رحمة، لا يدري أهو خوف أم فرح، أم لذة، لم يستطع أن يتبين تلك الحالة الغريبة التي تجيش في صدره وتهز أركانه.

صافحها بحرارة فدرّت حناياه حباً لها بلا مقدمات، وكأنه لم يرها إلا عشيته.

وبدأت ابتساماته تتعب عضلات خديه وأطراف فمه، لقد أتعبها الارتباك والاضطراب، لكنها أنقذته بقولها:

- هل تمانع أن نجلس تحت تلك النخلة؟

وبدون تردد قال:

- يسرني ذلك جداً.

فأخذت بيده لتجري به نحو نخلة الجوز القريبة غير بعيد من الشاطئ وهو يتبعها وكأنه يغوص في أعماق بحر لأول مرة، مذهولاً بما يرى ويشعر.

انتهيا إلى جذع النخلة فجلست بسرعة ثم سحبته بيده ليجلس بجانبها ملتصقا بها.

وهنا بدأت خلايا جسمه ترتعد وكأن تيارات كهربائية جعلت تسري فيها بلا هوادة. وبدأ الخجل يدب على محياه حاول أن يخفيه عنها لكنها اكتشفت ذلك من عبارات وجهه الواضحة، فقالت وبكل جرأة وحيوية:

- لماذا أنت مرتبك وخجلان هكذا .. من الطبيعي أن أكون أنا من يخجل ويتردد، فأنا الفتاة وأنت الرجل.

ضحك ضحكة ضعيفة وقال:

- لا .. لا .. لكن ألا تخشين أن يغضب أبوك أو أخوك لو رآنا أحدهما هنا وهكذا؟!

ندّت منها ضحكة دلال قوية وقالت:

- ولماذا يغضبان؟ تقاليدنا تختلف عن تقاليدكم أنتم، نحن لدينا الحرية الكافية التي تمكّن الفتاه منا أن تمارس حياتها الطبيعية كيف شاءت.

هز رأسه مبتسما مبديا إعجابه مخفيا ما في نفسه من تعليق.

أمسكت بإبهامها وسبابتها نونته التي لا تغطيها إلا شعيرات من لحيته وقالت:

- ما الذي تفكر فيه يا ‹‹سالم››؟ أعتقد أنك سعيد جدا بأن اجتمعت معك تحت هذه النخلة الجميلة وأمام هذا البحر الرائع ونحن نرى الشمس عن يميننا تستعد للهبوط نحو الغروب في صوره رائعة قلما رأيتها من قبل، أليس كذلك؟

كان يتابع وجهها وشفتيها وأسنانها وطرف لسانها وهي تخرج الكلمات كالدرر. ثم أجابها:

- نعم يا عزيزتي، أقصد - ثم تلكأ قليلا - واستأنف:- نعم أنا سعيد جدا حتى الثمالة، بل أشعر بالسكر وأنا بجانبك هذا المساء الجميل والرائع.

إنك يا ‹‹سوزان›› أجمل فتاة رأيتها [ثم بدأ كذب العشاق] لقد كنت ألاحظك وأعجب بك جداً، بل لقد تملكني الشوق نحو جمالك الأخاذ وأخلاقك العالية.

وبابتسامة ساحرة قالت:

- هل أعتبر كلامك هذا غزلا؟

تردد ثم قال:

- أرجو أن تعتبريه أفضل ما يكون بالنسبة لك.

ضحكت وقالت:

- إنك دبلوماسي بارع، لا بأس سأستمتع به.

- عزيزتي ‹‹سوزان›› .. هل تقبلين صداقتي الحميمة جدا؟

صاحت بضحكة مغرية ثم نهضت ساحبة يده معها لتركض به بشدة نحو الشاطئ وهو يتبعها وكفه في قبضتها حتى دخلت به في لجة البحر.

تعلق ‹‹سالم›› بـ‹‹سوزان›› بينما سخرت هي نفسها له بكل ما تعينه معاني العشق، حتى أصبحا يخرجان ويتنزهان ويلهوان أمام الجميع.

‹‹سوزان›› ردت على أمها التي أنكرت عليها اختيار ‹‹سالم›› عشيقا وقالت لها:

ـ إنني حرة في حياتي.

أما أبوها فقد فرح أن وجدت ابنته ما يملأ فراغها ويسليها، لكن أخاها كان يتصرف وكأن الأمر لا يعنيه.

أما ‹‹أنور›› فقد عقد جلسات مع ‹‹سالم›› وحذره من الانغماس في وصل حب أقل ما يوصف به أنه غير عفيف، لكنه قابله بالسخرية واتهمه بالغيرة تارة وتارة بالتحجر، فذكره بالله لكنه لم يتذكر، ذكره بالروحانية التي هفت إلى قلبه قبل أيام، فسخر من نفسه، خوّفه من سوء العاقبة فقلب له ظهر المجن وهدده إن لم يقلع عن نصحه أو توجيهه.

وانشغل ‹‹سالم›› بحبه الجديد الذي تملك كيانه كله وعطّله حتى عن الكسب في الغابة.

اعتزل عن ‹‹أنور›› وآثر ‹‹أنور›› ذلك الاعتزال فاهتم بأخته وصار هو وإياها يجففان ويهتمان بما قد جمعا من أعشاب، أما الطريق القريب المؤدّي إلى الغابة فقد أغلق تماما حتى أن ‹‹أنور›› لم يعد يذهب إلى فخاخه، وإن كان هناك طريقاً آخر لكنه كان بعيدا.

شرع ‹‹سالم›› في التودد بزيادة لآل‹‹هاندسون›› وخاصة ‹‹نانسي›› التي رأت أن انشقاقه على ‹‹أنور›› مكسب عظيم، وأن تعلقه بـ‹‹سوزان›› سيجعل منه تابعاً رائعا، أما ‹‹كيم›› فإن كان يجامله بابتسامات صفراء لإرضاء ‹‹آل هاندسون›› إلا أنه يحمل بين حناياه بارودا من الغيرة على ‹‹سوزان›› التي ظن أنه قد امتلك قلبها قبل أيام.

وقد شاركت ‹‹سوزان›› ‹‹سالماً›› كهفه وأصبحت ثانيته فيه، يخدمها أعظم مما تخدمه.

فلما رأى ‹‹أنور›› أن الرجل غارق في غرامه إلى أذنيه تقرب إليه من جديد وحاول أن يعيد وصل حبال الود التي كادت أن تتصرم، فهو يظن أن كل واحد منهما في حاجة إلى الآخر في هذا الظرف المكاني والزماني المتأزم.

وفي مكان قريب من الكوخ كان ‹‹أنور›› يتذكر صاحبه ويشبهه بمن بعيدا في البحر بعيداً عن الشاطئ بنشوة وقوة وثقة لا حد لها لكنه ما إن يلتفت خلفه ويرى نفسه قطرة في بحر هائج، والشاطئ يبتعد أكثر وأكثر فإن قواه تخور وشجاعته تضمحل ومعنويته تنهار، فإما أن يصرخ مستنجداً بمن عساه يضرب الماء لينقذه من الهلاك وإما أن يستسلم للبحر لينخرط إلى قاعة مبتلعا إياه.

وهكذا هو كل من يعوم في بحر حضارة لا يعرفها، ويسلم خطامه لأهلها.

كثيرون أولئك الذين ساحوا على وجه ماء البحر وابتعدوا حتى غرقوا صاحوا أم لم يصيحوا، لم يفطن لهم القادرون على إنقاذهم، وربما فطنوا لهم لكنهم لم يبالوا في أي واد أو في قعر البحر هلكوا، إما غضبا لمبادئهم التي تخلوا عنها أو استخفافا بذلك المصير المعتم الذي يتربص بهم.

لكن ‹‹أنور›› كان ممن يعرف الإنقاذ، فقد غفر لصاحبه زلاته، وأحسن في ظنونه، ورأى في أخطائه زيادة لخبراته.

فأوسع له صدره بقدر ما أوسع له أفق محياه.

عاد ‹‹سالم›› إلى ‹‹أنور›› لكنه لم يكن ذاك الأول فقد عاد بنفس جديدة وبأفكار غريبة. وبنفسية متعجرفة فسبحان مغير الأحوال.

تكدر ‹‹أنور›› كثيرا لما حل بصاحبه، لكن لم يعد يكيل له اللوم أو العتب بل قبله على ما هو عليه واستقبله بروح الأخ لأخيه، ونفس الخليل لخليله.

ﮓﮔﮓﮔﮓﮔﮓ

كان ‹‹أنور›› كعادته في أيام مضت يصلي الراتبة ثم يصلي مفردا إذا لم تشاركه أخته أحيانا، وقلبه يعتصر أسىَ لما يرى من صدّ صديقه ‹‹سالم›› وهجره لصلاة الجماعة.

وفي يوم من الأيام وبينما ‹‹سالم›› يحادثه إذ قام ‹‹أنور›› فرفع صوته بأذان صلاة الظهر فلما فرغ، انتظر ليأتي صاحبه للصلاة معه أو حتى ينصرف إلى كوخه النجس لكنه لم يفعل.

وما إن انتهي ‹‹أنور›› من صلاته حتى التفت إلى ‹‹سالم›› وقال له بصوت هادئ مازالت الصلاة تمنحه الهدوء والسكينة:

- لماذا لم تصل معي يا أخي.

رد ‹‹سالم›› بصوت لا يخلو من جلافة، وكأنه يترقب أن يفرغه في حضرة ‹‹أنور››:

- ولماذا أصلي معك؟ أنا أصلي كيف أشاء وأنت صل كيف تشاء، كأنك تريد أن تتحكم حتى في عبادتي.

ذهل ‹‹أنور›› من هذا الأسلوب الغريب، لكنه تمالك نفسه وقال بهدوء لم يتغير:

- من قال لك ذلك؟ هل استطاعت ‹‹سوزان›› أن تغيرك هكذا؟

أبدى ‹‹سالم›› غضبه من هذا السؤال وقال:

- ‹‹سوزان›› ليس لها دخل في هذا، أنا حُرّ يا أخي في عبادتي وتصرفاتي.

- ومن قال لك غير هذا؟

- اسمع: في الحقيقة وجدت نفسي في ما مضى أنني كنت تابعاً لك وكأنني مرهون لك، وأنا لا أرضى هذا أبداً.

ثم نهض ينفض بنطاله مما أصابه من التراب، لكن ‹‹أنور›› قال بصوت مرتفع:

- لحظة .. لحظة .. أرجوك.

التفت إليه وقد ولى وقال بصوت فيه نبرة من عجرفة:

- ماذا تريد؟

- ماذا أريد؟ أتعرف ماذا يعني هذا؟

- يعني الذي يعني.

- ألسنا أبناء جلدة واحدة؟ ألسنا أصدقاء؟ ما الذي أصابك؟

هز رأسه ورفع حاجبيه ومط طرفي شفتيه وقال:

- المشكلة يا ‹‹أنور›› أنك تظن أنك الرجل الكامل، وأنك العاقل، وأنك الكبير.

ضحك ‹‹أنور›› بمرارة وقال:

- ومتى أفصحت لك بهذا؟

- ليس بشرط أن أسمعها منك، لكن أفعالك تقول كذلك، أنت تسكن في أرض وكوخ يجب أن يكون لنا جميعاً، وقد عملت معك وشقوت فلم أجد منك ما يبيّن أن لي حقاً في كل هذا.

أخرج ‹‹أنور›› ضحكة استغراب وجعل يجيل النظر فيه وفي الأرض التي حوله ولم يدر بماذا يرد عليه فتأوه تأوهة قاسية ثم اتكأ على كفيه خلفه وقال:

- تعال يا صاحبي نتفاهم، كما تفاهم ‹‹كيم›› و‹‹هاندسون›› على الأقل، دعنا نتحد كما اتحد ‹‹كيم›› و‹‹نانسي›› لماذا يفرقوننا وهم يتحدون، لماذا يغرسون البغض والكره والحقد بيني وبينك وهم يهنئون بالوئام والسلام؟ أنا وأنت كلنا يضمنا أصل واحد وإيمان برب واحد ونبي واحد وكتاب واحد، افرض أن لدي من الأخطاء ما لا تعجبك، إن كانت بيني وبين ربي فكلني إليه وهو أولى منك

بمحاسبتي، وسأكلك أنت إلى خالقك أيضا، عاملني من هذه الناحية كما تعامل الآخرين، ولا يمنعني أن أتعامل معك أيضا على هذا المنوال. وإن كانت المشكلة مؤصلة في نفسي ونفسك من موروثاتنا، فأعتقد أننا وصلنا من الحضارة والعلم والثقافة والدراية ما نستطيع أن نأخذ ونرد ولا نكون إمعات، فدعنا نتفاهم ونرجع إلى أيامنا الجميلة التي جمعتنا وكل منا يقابل ربه بعمله، فقط فلنعش بسلام ووئام.

كان ‹‹سالم›› يتابع ‹‹أنور›› وهو يتحدث إليه، ولم يستطع أن يقاطعه فقد كان ‹‹أنور›› يتحدث بطلاقة وسرعة وتأثر بالغ.

لم يكن ‹‹سالم›› في منأى من التأثر بهذا الكلام الذي هز مشاعره من الداخل لكنه استدرك كبرياءه، وأراد أن ينصرف، إلا أنه لا بد أن يظهر ‹‹لأنور›› عدم اقتناعه بما قال لأمر في نفسه ولاعتلاج بعض التساؤلات فيها.

فمط شفته السفلي وهز رأسه مبديا إعجابا مصطنعا أو استخفافا مبطنا، ثم انصرف وهو يهز رأسه ولشدة غضبه واستغراقه في التفكير أصدمت قدمه بقوة في حجر اعترض طريقه فضرب إبهام قدمه اليمنى فنال من أظفرها وخلعه.

وبصرخة قوية دوت لها أرجاء الجبل حوله، سمع ‹‹أنور›› صرخته المؤلمة لكنه كان مستغرقا في صلاته، فهرعت ‹‹نهاد›› نحوه تسأله عما به، وهو جالس على مقعدته رافعاً قدمه إلى الأعلى و يتأوه من شدة الألم ممسكا إصبعه التي تنزف وقد انقشع أظفرها عن مكانه.

لاحظت ‹‹نهاد›› أن ‹‹كيم›› و‹‹جو›› واقفان أمام كوخ الأول فصاحت فيهما كي يحضرا شيئا من الإسعافات الأولية.

وبينما هي تهدئ من روعه أمسكت بقدمه وهو متمدد على ظهره إذ أقبل ‹‹أنور›› واقبل الآخرون واجتمعوا عنده ثم باشرت ‹‹نهاد›› بربط إصبعه بعد علاجها، وفي النهاية قام واتكأ على كتف ‹‹أنور›› فمنحه ابتسامة عريضة، وقال بهمس:

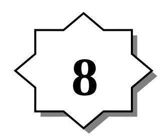
- أعرف أن كل واحد منا يحتاج الآخر.

فرح ‹‹أنور›› بهذه العبارة فرسمت الفرحة ابتسامة عذبه على شفتيه وشد بقبضته على كتف صاحبه وقبضته على الأخرى على كفه التي تتكئ على كتفه امتنانا و إشعارا بالسرور والرضا.

عرض عليه أن يبقى في ضيافته لكنه شكره ثم سار قليلا وطلب منه أن يتركه إذ لديه القدرة على الاعتناء بنفسه.

اتجه بنفسه إلى حيث يقع كهفه، بينما تبعته ‹‹سوزان›› متثاقلة تشجعه على السير وتحمل الألم وحده، وربما كانت تسليه بطرق وضحكات ساخرة، كانت أكثر إيلاما لنفسه من ذلك الألم الذي في قدمه.

ꕥꕥꕥ



في صباح أشرقت فيه الشمس على الأرض ولم تحجب الغيوم أي شيء من شعاعها الجميل على إطلالة كوخ ‹‹أنور›› البحرية جلس ‹‹أنور›› مقتعدا صخرة ملساء وقد مد صنارته وغرسها بين صخرتين وأخذ يقرأ القرآن إذ سمع خطى خلفه لكنها ليست خطى ‹‹نهاد›› التي يعهدها فالتفت فإذا هو بـ‹‹سالم›› قد أقبل راسما على محياه ابتسامة ملؤها القلق الظاهر على صفحة وجهه.

أغلق ‹‹أنور›› مصحفه ودار نحوه ورحب به وبعد سلام ورده. جلس الاثنان على الحصباء غير بعيد من الصنارة، وبعد برهة من الصمت حين قال ‹‹سالم››:

- ما رأيك يا ‹‹أنور›› في ....

ثم تردد في الحديث، لكن هزات رأس ‹‹أنور›› وابتسامته لم تمكنه من السكوت فقد كانت تستحثه بقوة.

فأكمل:

- في الحقيقة جئتك لأستشيرك في أمر مهم جدا بالنسبة لي.

استثيرت مكامن الفضول لدى ‹‹أنور›› وتحفز لسماع بقية الخبر وما هو ذلك المهم.

ولم يبخل عليه فقد أكمل حديثه قائلا:

- أريد أن أتزوج يا ‹‹أنور››.

وجب قلب ‹‹أنور›› من المفاجأة وتغيرت قسمات وجهه، فقد ظن لأول وهلة أن الرجل جاءه لا محالة يخطب أخته، سوف لن يعارض زواجه، بل قد يسعده ذلك لولا ما حصل بينه وبين

‹‹سوزان›› وما دار بينه وبينه وتكشفت له عنه أشياء تعتبر حاجزا قويا تمنع من زواجه من ‹‹نهاد››. لكنه فضل الانتظار، وضغط على أعصابه وانتظر نهاية المقدمة، ولم يزد على كلمة واحده مستحثا إياه للحديث.

- طيّب؟!

فقال ‹‹سالم›› وقد صرف وجهه نحو البحر وبدت على وجهه ظلمة لم يكن يراها ‹‹أنور›› من قبل:

- في الحقيقة أريد أن أتزوج ‹‹سوزان››.

سمع ‹‹أنور›› هذه الكلمات فكانت لأعصابه كالماء البارد على الظمأ، فرح بالمخرج فحمد الله في نفسه ورد عليه بهدوء بالغ:

- وهل فكرت في ذلك جيدا يا أخ ‹‹سالم››.

- نعم. وأدرك أنه من الواجب عليّ فعل ذلك.

عرف ‹‹أنور›› ما يقصده، وأنه وجد الزواج من ‹‹سوزان›› بالنسبة له أمراً حتمياً فقال له:

- إذن مبروك.

- ولكن هل تظن أن والديها سيرضيان بي زوجاً لابنتهما؟

- في مثل حالتكما لن يمانعا، فيما أظن.

- ولكن هل يجوز لي أنا كمسلم أن أتزوج مسيحية؟

- نعم نعم وليس هناك من مانع شرعا أبدا فهي كتابيّة.

لذّ ‹‹سالم›› سماع هذه التبريكات وهذه الفتاوى، ولم تبق عنده إلا الخطوة التالية وهي الخطبة.

يعلم ‹‹سالم›› أن والد ‹‹سوزان›› وأخيها لا يمانعان أبداً، بل المشكلة تكمن في أمها ‹‹نانسي›› التي تكرهه وتكره قومه وكذلك ‹‹كيم›› الذي يعتبره العقبة الكأداء أمامه، فهو يراه يتقرب إليها ويلاطفها أمامه أحيانا، بل ويتغزل فيها على مسمع من أمها.

وبينما هو يفكر في ذلك سأله ‹‹أنور››:

- وهل ‹‹سوزان›› ترغب بالزواج منك؟

- بالطبع فهي التي تحثني وبقوة على الزواج، رغم أني أقنعها بأن نبقى أصدقاء.

- لا .. لا يا ‹‹سالم›› الزواج أفضل بكثير مما يقع بينكما.

تورد وجه ‹‹سالم›› خجلا، ولكنه سأل ‹‹أنور›› أن يرافقه الليلة لطلب يد ‹‹سوزان›› من أهلها فأجابه بالقبول.

ꙮꙮꙮ

في المساء وبينما أسرة ‹‹آل هاندسون›› تتسامر على ضوء نار أوقدت حولها يشاركهم في سمرهم ‹‹كيم›› إذ أقبل ‹‹أنور›› وصاحبه، يسيران تحت نور القمر حتى إذا وصلا مجلس ‹‹آل هاندسون›› المكشوف في الهواء الطلق، قام ‹‹هاندسون›› فرحا بهما فقد كان برما بما يسمع من ‹‹كيم›› و‹‹نانسي›› وما يشاركهما من سخافات لم تكن تروق له من قبل.

رحب بهما، وأجلسهما قريبا منه وقال ممازحا:

- لقد ظننت أنكما خرجتما تصيدان الأرانب تحت ضوء القمر.

فقال ‹‹أنور›› ممازحا:

- بالفعل فنحن جئنا للصيد، لكن لصيد أجمل وأرق طريدة.

وابتسم ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى ‹‹سوزان›› التي شع رغم ضآلة أشعة النور صفحة وجهها بخجلة أنثوية.

وبعد دقائق شرع ‹‹أنور›› بالتمهيد لخطبة ‹‹سالم›› من ‹‹سوزان›› ولم يكن هناك أي عقبات تذكر فقد كان الوضع أيسر مما كان يتوقع هو وصاحبه العروس فكأن الوضع ليس بجديد وكأنه مدروس بعناية قبل أن يصلا.

قالت أمها بشيء من غضب:

- هذا شأنها إذا أرادت أن تتزوجه فلتفعل، هي حرة في نفسها.

وتبع هذه الجملة عبارات أخرى مماثله من أبيها، أما ‹‹جو›› قد بادر بالمباركة وممازحة أخته التي اكتفت بابتسامة غطت حسنها على محياها الذي وشي بحبات الشباب.

زاد ‹‹كيم›› في تمدده على جنبه الأيمن، وقال كلمة مباركة غامضة جافة لكنها قذفت في قلب ‹‹سالم›› الرعب.

شكر ‹‹سالم›› و‹‹أنور›› ‹‹آل هاندسون›› على مباركتهما ذلك الزواج، إلا أن ‹‹كيم›› قد كسته ظلمة قاتمة.

ꕥꕥꕥ

التحقت ‹‹سوزان›› بكهف ‹‹سالم›› بعد أن قام ‹‹أنور›› بعقد القران بينهما كما سبق وأن صنع أهلها مراسم كنسية غيرها.

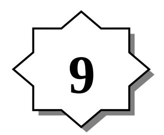
وكان يوم الزواج يوما حافلا بأنواع مختلفة من الأطعمة مصدرها واحد لولا أن اللحوم تنوعت بين لحم طير ولحم غزال مجفف وسمك.

وقد كانت فرحة ‹‹سالم›› لا توصف أما ‹‹سوزان›› فإنها إن كانت تظهر الفرحة على محياها لكنها تشارك الجميع وكأنها تسير إلى نزهة قصيرة.

أما ‹‹كيم›› فقد اختفى عن الأنظار وكأنه يحتج على الزواج بطريقته الخاصة.

وهكذا أصبحت ‹‹سوزان›› زوجه شرعية لـ‹‹سالم››، وكان ‹‹أنور›› يرى هذا الزواج أخف الشرين فحمد الله على كل حال، وسعى مرغما في إنجاحه طلبا للسلامة والعفاف.

ꕥꕥꕥ



انخرط ‹‹سالم›› في حياة ‹‹آل هاندسون›› وصار واحداً من العائلة الغربية في الجزيرة، تطبع بطباعهم في أيام، وصار يعبّ من أفكارهم مقلداً إياهم في عاداتهم، بغير هدىً ولا كتاب منير.

بل إن ‹‹سوزان›› استخدمته خاتماً في أصبعها، توجهه حيث يشاء أهلها تأمره فيأتمر وتنهاه فينتهي.

رضي ‹‹سالم›› أن يعيش معهم كأدناهم، فإذا ما جالس ‹‹أنور›› نفش ريشه عليه وجاهد نفسه ليظهر أمامه الرجل المتحضر الفاهم، حتى أنه ظن أن ‹‹أنور›› قد انطلت عليه ‹‹فشاشته›› وأنه إنما يقدره أو يتعامل معه باحترام لأنه من أصهار الغربيين.

أما ‹‹أنور›› ففي الحقيقة كان كلما جالسه ازداد تواضعاً وليناً لعله يكسبه ويرضيه فيؤالفه، حتى صدق أخيراً أن اللئيم إذا أكرمته تمردا، وأن الخضوع والخنوع واللين لا يزيد صاحبه إلا ذلا.

ولو أنه عامله بنفس المكيال والمقياس لما وصل الأمر إلى ما وصل إليه.

ذات ليلة وبينما كان ‹‹أنور›› يتناول عشاءه البسيط مع أخته التي بدا عليها الهزال والضعف، سألها قائلاً:

- ‹‹نهاد›› .. أعلم أنني انشغلت عنك كثيراً بما رأيت، أرجو أن تغفري لي وتقدري ظروفي.

نظرت إليه بعين الحكيمة وقالت بهدوئها المعتاد:

- أخي ... إنني أقدر ما أنت فيه هذه الأيام، لا لأنه من وجهة نظري - على الأقل - صواب، ولكن لأنك تظن أنه هو الصواب .. إلا أنني عاتبة عليك بانشغالك بالآخرين أكثر من انشغالك

بنفسك وبي أنا .. لقد انصرفت إلى ما يفعله ‹‹سالم›› وما هو عليه وما الذي ينتظره .. ونسيت أن لك أختاً هي أولى بالاهتمام في ظرف عصيب كالذي نحن فيه.

شعر ‹‹أنور›› بالخجل أمام أخته، فانكسرت نفسه وظن أن أخته تعاني من الوحدة والشعور بالضجر والملل، فقال بصوت خاضع:

- أكرر اعتذاري، وأعدك بأنني سوف أتدارك ما فاتني نحوك .. لكن اغفري لي أرجوك.

غصتها العبرة فلم تستطع أن تخرج كلمات كادت أن تنطق بها بقوة فضربت صحن الطعام بكفها ثم قامت بحركة ذات معنى وانصرفت تنشج إلى حيث الموقد متظاهرة أنها تصنع شيئاً.

ازدرد ‹‹أنور›› لقمته بصعوبة، وتسمّر في مقعده وهو يلحظ أخته، وأيقن أن في الأمر شيئاً ذا بال غير الذي يظهر. فقام إلى أخته وجلس القرفصاء بجانبها وأمسك بقبضته كتفها وهزه برفق وقال بصوت خفيض:

- أختي حبيبتي .. ما بك؟ إنني أشعر بأنك تخبئين عني شيئاً هاماً.

لم تجبه وهو يهز كتفها بلطف مشجعاً إياها على الكلام وهو يقول:

- هيا أرجوك تكلمي .. تكلمي.

رفعت بصرها نحو وجهه وشقت ثغرها عن ابتسامة واهنة وهي تمسح دموعها بكم يدها اليمنى وقالت:

- لا شيء .. لا شيء يا أخي .. ولكنني شعرت بالملل وأخشى أن أصاب بالاكتئاب في ظل إهمالك لي.

لم تكن تلك الكلمات التي تجعله يصدق كلامها، لكنه اكتفى بالصمت وربت على كتفها وقام متثاقلاً ثم انصرف نحو البحر لعله يبتلع عبراته .. ولم يستجب لأخته التي كررت دعاءها له ليكمل عشاءه.

ꙮꙮꙮ

في فجر أحد الأيام وبينما بدأت أنوار المشرق تشق طريقها نحو الأفق البعيد على حافة المحيط المهيب توجه ‹‹أنور›› مع أخته نحو الغابة ليسلكا ذلك الطريق الذي يمر بالقرب من ‹‹كيم›› والذي سبق أن فتحه، فوجداه قد أغلق مرة أخرى لكن المعضلة الكبرى والمصيبة الأعظم أن الطريق جزء صغير من احتلال أكبر لجزء من أرض ‹‹أنور›› فقد لاحظ أن أعواداً عدة قد انتصبت في أرضه مقتطعة مساحة من أرضه التي زرعها من قبل.

انتفخت أوداجه غضباً وتدفق الدم إلى قلبه فكان كوقود صب عليه اللهب فانفجر يصرخ بأعلى صوته لترتج جنبات الجزيرة وهو ينادي ‹‹كيم›› وينعته بأقذع العبارات التي لم يعهد أحداً أن يسمعها منه حتى أخته، ثم انقض على الأعواد ينزعها ويطرحها أرضاً بهياج حصان مارد، مهددا ‹‹كيم›› بالويل والثبور.

خرج ‹‹كيم›› نحوه وفي يده عصا غليظة فانقض على ‹‹أنور›› ليضربه، فتصارعا صراعاً شديداً أمام ناظري ‹‹نهاد›› الضعيفة التي لم تستطع أن تفصل بينهما أو على الأقل تقدم العون لأخيها برمية حجر أو ضربة عصا.

استيقظ ‹‹آل هاندسون›› و‹‹سالم›› وزوجته وأقبلوا جميعاً ليشاهدوا ما يحصل هناك. كانت الغلبة لـ‹‹أنور››، لكن الأم غير الشرعية لـ‹‹كيم›› أرسلت كلبها - أقصد - ابنها ‹‹جو›› ليساعد ‹‹كيم››

فكان يسحب ‹‹أنور›› ويدفعه ويسمح لـ‹‹كيم›› بضرب ‹‹أنور›› بينما يمسك قبضة ‹‹أنور›› حينما تتجه إلى ‹‹كيم›› فرجح الميزان لصالح ‹‹كيم›› بالطبع، وأخيرا انتهت المعركة ببعض الدماء التي سالت على الوجهين والأكتاف.

تراجع ‹‹أنور›› مقهوراً ونفَسَه يغلي وكبده تلتهب حرارة مما رأى من انحياز ‹‹آل هاندسون›› إلى جانب الظالم ومن مرارة الهزيمة التي كتبت عليه.

وتوجه ‹‹كيم›› وبصورة هستيرية إلى الأعواد التي نزعها ‹‹أنور›› وجعل يغرسها مرة أخرى ويمعن في التعمق في أرض ‹‹كيم›› مستغلاً النجاح الذي كسبه بمساعدة ‹‹جو››.

أما ‹‹هاندسون›› و‹‹نانسي›› وابنتهما فقد وقفوا متفرجين، ولحق ‹‹سالم›› بـ‹‹أنور›› الذي انسحب من المعركة بلوعته، فأخذ يلومه على خوض معركة غير متكافئة، سببت له هو الحرج مع أصهاره، لكن ‹‹أنور›› رماه بنظرة قاسية وأتبعها بكلمات ونعوت طالما يتكرر استخدامها بين شعبيهما المقهورة كالوصف بالجبن والعمالة والخيانة إلى آخر هذه الكلمات التي حفظناها ‹‹صماً›› منذ نعومة أظفارنا.

ثار الدم في رأس ‹‹سالم›› غضباً لنفسه فتوقف مكانه وقال بصوت ثقيل:

- ‹‹أنور›› .. بدلاً من أن تنعتني وتصفني بهذه الصفات وتهينني أرجو أن تهتم بأختك أكثر، خيراً لك قبل أن يغتصبها ‹‹كيم›› كما اغتصب أرضك.

غضب ‹‹أنور›› غضباً شديداً واهتاجت نفسه حتى ظن أن دمه قد تفجر في قلبه وهمّ أن يبطش به لولا أنه فرغ شحنته في كلمات قالها وهو يصرخ في وجه ‹‹سالم››:

- خسئت أيها الكلب العميل .. وخسئ كل من يتوهم أنه يستطيع أن يمس شعرة من شعرات ‹‹نهاد››.

نظر إليه ‹‹سالم›› بهدوء وخبث وقال:

- إذن اسأل ‹‹نهاداً›› عما همّ به ‹‹كيم›› من قبل.

ثم انصرف سريعاً خوفاً من بطش ‹‹أنور››.

ارتعد جسد ‹‹أنور›› واستولى عليه الغضب مرة أخرى حتى شعر أن قدميه لا تحملانه واندفع نحوه ليبطش به لولا أنه هرب إلى وسط الغابة تاركاً إياه يصارع هواجس الريبة والشك القاتل.

حوّل ‹‹أنور›› بصره نحو أخته التي تجمدت مكانها وكأنما تقادح الشرر من عينيه، فسارعت ‹‹نهاد›› بالقول:

- اهدأ .. اهدأ يا ‹‹أنور›› فوالذي رفع السماء بلا عمد أنه لم يمس مني شعرة واحدة، ولكن انتظر وسأشرح لك ما حصل.

ꕥꕥꕥꕥꕥꕥ

تأكد ‹‹أنور›› أن ‹‹كيم›› الخبيث حاول مرة أن يتحرش بها في غيبة ‹‹أنور›› في الغابة فصدته ورمته بالحجارة ثم هربت إلى ‹‹آل هاندسون›› ولاذت بهم لكنهم اتفقوا معها ألا تخبر ‹‹أنور›› حتى لا تثور فتنة قد يقتل أحدهما الآخر.

بقي ‹‹أنور›› أياماً يتقلب على جمر الغيرة والقهر، و‹‹نهاد›› تحاول مستميتة لتهدئته والتفكير بعقلانية في جزيرة لا يحكمها إلا القوة والكثرة التي يمتلكها ‹‹كيم›› بـ‹‹آل هاندسون››، فما يلبث أن يهدأ حتى يتذكر فعل ‹‹كيم›› مرة أخرى فيثور ويزمجر ويهدد.

لكنه حينما كان يهم بالانتقام يرجع إلى نفسه فيهدئها ويقنعها بأن موازين القوى ليست في صالحه فيعود يهدئ من اندفاعه ويحادث نفسه بأن الظلم لن يبقى إلى الأبد وأنه سوف يأتي يوم يستطيع أن يعيد الحق إلى نصابه.

كانت أخته تخاف في الحالتين خوفاً لم يفارقها فهي تعرف أخاها منذ صغره أنه عادة ما كان يسلك سلوكاً عدائياً إذا شعر بالإحباط، وكان في مراهقته لا يتردد في أن يلجأ إلى أسلوب عدائي مفرط حسب ما يتعرض له من عوامل وحسب كمية الإحباط التي يعيشها.

وبينما هي تلاحظ أخاها الذي كان يتألم نفسياً أكثر من عضوياً حينما يرى بعض الرضوض على جسده وحينما يرى عنوان الطهر والعفاف أخته ‹‹نهاد›› ويتذكر أنها تعرضت يوماً للتحرش وحينما يرى بأم عينه أرضه وقد ركزت على أطراف معظمها أعواد ‹‹كيم›› البغيض.

حاول ‹‹أنور›› أن يخفف تلك الضغوط التي يئن تحت وطئتها متناسياً موقف ‹‹سالم›› المخزي، وتخليه عن نصرته في زمان ومكان هو في أمس الحاجة إليه.

فعفا عما بدر منه وقدم الظن الحسن فيما قال، واقتنع بأنه هو الذي سيساعده ويقف بجانبه لكن الأخير أبدى عجزه وحاجته أكثر إلى أصهاره ‹‹آل هاندسون››.

وبعد تفكير طويل ذهب إلى ‹‹آل هاندسون›› وتضرع إليهم وذكرهم بمختلف الأساليب، بفضله عليهم وحاجتهم المصيرية إليه، لكنه وجد أوجهاً متلونة وأطيافاً من الوعود التي يعلم أنها كلها خادعة، حتى وصل عنده الإحباط إلى أعلا درجاته.

وفي ليل غاب فيه الكرى عن أجفانه أخذ يذرع الشاطئ القريب من كوخه يراجع حساباته ويهز أشجانه وعبراته، حتى وصل به الشعور بالقهر إلى القنوط والحقد والبغض لـ‹‹كيم››

و‹‹آل هاندسون›› و‹‹سالم›› عنده مبلغه، وشعر بأن الحق في هذه الجزيرة لا يؤخذ إلا بالقوة وبأي أسلوب وطريق ما دام كل من فيها لا يقره على حق، بل إنهم يمعنون في إهانته وسحقه.

ثارت شخصيته المدفونة في نفسه، وشعر بها تهز كيانه بعد أن خمدت سنين طويلة، وتحركت مشاعر الانتقام في فؤاده حتى إنه حاول أن يصدها ببعض العبارات إلا أنه أخفق، فهرع إلى فراشه لعله يجد سبيلاً إلى النوم لكنه فشل حتى صلى الفجر ثم عاد لينام كغير عادته.

ꕥꕥꕥꕥꕥꕥꕥ

في ليلة دهماء نامت الأعين إلا عين الله، وهجع الناس في الجزيرة إلى مضاجعهم التي بدأ قماشها يشتكي البلى إذ صرخت ‹‹سوزان›› من مهجعها في عرض الجبل:

- النار ... النار ....

استيقظ ‹‹أنور›› وصرخ هو أيضاً.

- ‹‹هاندسون›› النار .... النار....

وكان ‹‹كيم›› واقف غير بعيد وهو يصرخ كذلك.

- ‹‹نانسي›› النار ... النار ... استيقظوا ... استيقظوا.

كانت النار تلتهم كوخ ‹‹آل هاندسون›› بسرعة، وكان لطف الله بهم أنهم كانوا نائمين في الخارج طلباً للهواء البارد وبعيداً عن الرائحة الكريهة التي تبعثها الأخشاب والحشائش الرطبة التي لا تيبس حتى يأتيها المطر فيبللها.

ابتعد ‹‹آل هاندسون›› عن كوخهم الملتهب وأقبل كل من ‹‹أنور›› وأخته و‹‹سوزان›› وزوجها، وجعلوا يراقبون مبهوتين من شدة اضطرام النار في الهشيم.

بل وقفوا عاجزين عن إخمادها بآنيتهم التعيسة، وهي تضئ أرجاء الجزيرة التي انتفضت بعض طيورها وغادرت إلى مكان بعيد.

لم يترك ‹‹كيم›› الفرصة تضيع فقد اقبل وبخفية إلى ‹‹نانسي›› وهي تنظر بحنق وحزن على عشها المحترق وقال:

- أنا متأكد أن الذي أشعل النار في الكوخ هو ‹‹أنور›› ليس هنا من له مصلحة في ذلك إلا هو.

وفي الحال أعلنت ‹‹نانسي›› اتهامها ‹‹لأنور›› وأخته، حاول ‹‹هاندسون›› أن يهدئها وكذلك ‹‹سوزان›› إلا أنها أعلنتها صريحة أن المجرم هو ‹‹أنور›› سليل الإرهابيين، ولا تبرئ ‹‹سالماً›› منها فهو وإن كان صهراً لهم لكنه يشارك ‹‹أنور›› في العرق والدين ‹‹أنور›› .

لم يشأ ‹‹أنور›› أن يدافع عن نفسه في هذا الوقت لشدة الاحتقان لدى ‹‹آل هاندسون›› بينما سارع زوج ‹‹سوزان›› إلى الخضوع عند ركبتها متذللاً ومقسماً بكل ما تصدّق به أنه لم يكن هو الفاعل، إذ إنه ليس مصلحة لأن يفعل ذلك، وهو صهرها وأكثر الناس قرباً وحباً لها.

أخذت تردد اتهامها له و‹‹لأنور›› حتى إذا أمعن ‹‹سالم›› في الخضوع والتذلل تركته بعد أن قالت:

- أنا متأكدة من اتهامي ‹‹لأنور›› أما أنت فسيتضح لي أمرك فيما بعد.

هددته وأخضعته لا لأنها تشك في أنه الفاعل، ولكن لعزلة عن ‹‹أنور›› وحتى لا يتحرك له عرق في الدفاع عنه.

انخزل ‹‹أنور›› إلى كوخه ساكناً لم ينبس ببنت شفة ولم يدر ماذا حل به وبجزيرته، لقد فشل في التعامل مع الموقف، ورأى أن الاتهام قد صب عليه لمعاداته ‹‹كيم›› وأن الظلم له مخالب وتلك المخالب لا بد يوماً أن تنهشه .

لم يستطع أن يدافع عن نفسه لأنه يرى أن الدفاع عن النفس في هذه الحالة تأكيد للشكوك. فهو من وجهة نظره برئ ولا يحتاج إلى أن يتضرع كما تضرع ذلك الذنب أمام ركبتي نانسي.

عاد ‹‹أنور›› والنار ما زالت تضطرم في أفئدة ‹‹آل هاندسون›› ولم تنطفئ بعد، بل أخذت تزداد مع تناقص نار الكوخ الذي غدا رماداً متلبطاً بالأرض.

حار ‹‹أنور›› في أمره فـ‹‹آل هاندسون›› أصبحوا بلا مأوى، ويخشى أن يعرض عليهم إسكان نسائهم في كوخه حتى يتم بناء كوخ لهم فيحتلوه ولا يخرجوا منه أبداً.

وبات في شر مبيت، بل أكثر بؤساً من ‹‹آل هاندسون›› أنفسهم.

ﮰﮱﮰﮱﮰﮱﮰ

أخذ ‹‹كيم›› يجمع الأدلة التي تؤكد أن ‹‹أنور›› وأخته هما المجرمان وبالغ في ذلك.

وكانت ‹‹نانسي›› قد استمتعت بدور المفتش الذي يجمع الأدلة دقيقها وجليلها يساعدها في ذلك مع ‹‹كيم›› ‹‹جو›› الذي وجد ما يشغل تفكيره الأجوف، أما ‹‹هاندسون›› فكان دوره التهدئة حينا ومناقشتها أحياناً أخرى.

أما ‹‹سالم›› فقد صدمه الأمر وكان لا ينام الليل خوفاً من سوء الحال الذي يرتقبهم، فكان يتملق ‹‹آل هاندسون›› ويزور ‹‹كيم›› من وقت لآخر ويساعده في مزرعته، بينما كان الجميع يدركون ضعفه وخوره فيستغلونه في التنصت على ‹‹آل أنور›› وإعطاء المعلومات الوافية عنهم.

وتتابع التهديد واشتد الأمر على ‹‹أنور›› وأخته حتى ضاقت عليهما الجزيرة بما رحبت، ووجدا أنهما وحيدان كسيرا الجناحين.

وفي عصر أحد الأيام فوجئ ‹‹أنور›› وأخته بـ‹‹هاندسون›› و‹‹جو›› و‹‹نانسي›› يصيحان بهما أمام الكوخ وهما داخله .

- ‹‹أنور›› ... ‹‹أنور›› .. أخرج أنت و‹‹نهاد›› وإلا سوف نحرق كوخكما وأنتما فيه

خرج ‹‹أنور›› وفي يده سكين طويلة وقد تطاير الشرر من عينيه ... وتبعته ‹‹نهاد›› ترتعد خوفاً حتى لم تكد قدماها تحملانها، فلما أصبحا عند الباب رأى ‹‹جو›› وفي يده بندقية وفي يد ‹‹هاندسون›› الآخر مسدساً فوهته نحو الأرض وفي يد ‹‹نانسي›› شعلة تلتهب.

صدم ‹‹أنور›› بما رأى، لكنه لم يُظهِر لهم خوفاً وقال:

- خيراً ‹‹إن شاء الله›› ما الخبر؟!

قال ‹‹هاندسون›› بصوت جسور لم يعهده ‹‹أنور›› منه:

- لقد عرفنا من الفاعل ... أقصد من الذي أحرق كوخنا.

فرد ‹‹أنور›› بسرعة:

- ومن عساه يكون يا ترى؟!

فقال ‹‹هاندسون›› ساخراً:

- إنها ‹‹نهاد›› .. ذات الدين والورع.

صاح فيه ‹‹أنور›› قائلاً:

- ماذا؟. ‹‹نهاد››؟ من قال لك هذا؟ ‹‹كيم››؟! أنا متأكد من أن ‹‹كيم›› هو من يقول ذلك، كيف تصدقونه وهو عدونا اللدود؟!

- ليس دليلنا من ‹‹كيم›› وحده، لقد وجدنا أدلة دامغة تثبت أنها هي المجرمة فإما أن تسلمنا إياها لنحاكمها أو نقتص بإحراق كوخكما.

بُهت ‹‹أنور›› مما يقول ‹‹هاندسون›› ورد عليه بصوت جسور:

- ماذا تقولون؟ ‹‹نهاد›› وإن فعلت .. فإنه من المستحيل أن أسمح لكم بإيذائها وأنا حي أرزق، ثم إن الخطأ لا يعالج بالخطأ.

فصرخت ‹‹نانسي›› وهي تهز شعلتها:

- بل الانتقام هو الذي يشفي صدورنا .. ويرمم صدوع قلوبنا .. ‹‹نهاد›› أجرمت في حقنا ومن حقنا أن نقتص منها.

رفع ‹‹أنور›› صوته قائلاً:

- أقول لكم ‹‹نهاد›› لم ولن تفعل، فلماذا أنتم مصرون على اتهامها؟

وبشجاعة غير معهودة وجرأة غير متوقعة أزاحت ‹‹نهاد›› أخاها عن طريقها وقالت وهي تبكي:

- نعم أنا التي أحرقت كوخكم ... أردت أن أحرق كوخ ‹‹كيم›› لكنني لم أستطع فاتجهت إلى كوخكم الذي يؤوي ذلك الظالم .. أنتم لا تدركون طعم الذل والقهر لأنكم لم تجربوه .. ‹‹نانسي›› .. أنت لم تجربي قهر التحرش والإهانة كما جربتها أنا وأنتم تشهدون، أنتم لم تتجرعوا مرارة الظلم الذي أذقنا إياه ‹‹كيم›› بقوتكم وسلطتكم.

صحيح أنا ضعيفة لكن قوة القهر التي في داخلي هي التي جعلتني أتوجه لأعبر عما أكتنز في قلبي وضغط على نياطه.

أريدكم أن تنتبهوا .. أريدكم أن تشعروا بالآخرين ‹‹كيم›› لن يبقى إلى الأبد بل عملكم هو الذي سيبقى إلى أبد الآبدين.

ثم دخلت بسرعة إلى كوخها فأخذت تقذف بأوانيها إلى الخارج بصورة هستيرية ثم صاحت بـ‹‹أنور››:

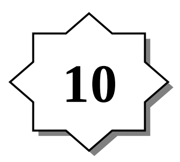
- تعال خذ فراشك .. تعال خذ فراشك يا ‹‹أنور››.

ثم خرجت أمامهم وقالت ببكاء مر:

- إليكم كوخنا .. احرقوه .. احرقوه أحرقكم الله.

سقط العود المشتعل من يد ‹‹نانسي›› ... والتفت بعضهم إلى بعض ثم إلى ‹‹نهاد›› التي وصلت إلى مكان بعيد فألقت بفراشها وأخذت تنتحب، أما ‹‹أنور›› فقد أخذت زفراته تتلاحق، وسقط في يديه.

كان تصرف ‹‹نهاد›› وبكاؤها قد أثر في نفوس ‹‹آل هاندسون›› فوقفوا هنيهة ثم انسحبوا إلى حيث جمعوا أمتعتهم تحت الجبل وقد امتلأت صدورهم شفقة وانطفأت نار الحقد والانتقام بصرخات ‹‹نهاد›› المقهورة.



هدأ الوضع في الجزيرة وبدأ ‹‹آل هاندسون›› يجمعون الأخشاب لبناء كوخ جديد غير بعيد من رميم الأول وبالقرب من زرعهم الذي لم يجد اهتماما حتى تضاءل نباته، وقد ندموا على إضاعة بذوره فيه.

وبينما هم يعملون بجد ونشاط إذ أقبل عليهم ‹‹أنور›› على استحياء .. فسلم عليهم. لكنه لم يسمع رداً للسلام .. أعذرهم .. وعلم أن غضبهم كان على حق لكنه أراد أن يبدأ الخطوة الأولى نحو التصحيح، فهو لم يقصر في تعنيف أخته ولومها بشدة على ما قامت به من حماقة في إحراق كوخ جيرانه وأن أخذ الحق ليس بهذه الصورة وأن التعبير عن المواقف ليس بحرق البيوت وإزهاق النفوس.

الحقوق والأعراض يجب أن نستميت دونها، لكن الاعتداء بالرأي والتهور في الاعتداء على الآخرين وتعريضهم للخطر حماقة عظمى، فالناس لن تقف مكتوفة الأيدي دون رد الأذى عن أنفسهم وكل قوي بحسبه.

غبي ذلك الذي يتوقع سكوت الأقوياء عن حقوقهم، وغبي ذلك الذي يفعل فعلته دون أن يتوقع رد فعل يساوي أو يفوق ذلك الفعل، المغامرة بالأرواح والممتلكات مغامرة بالمصير والذي لا يقدر العاقبة تخونه العواقب.

قرب ‹‹أنور›› من ‹‹هاندسون›› ومد يده إلى ‹‹هاندسون›› يصافحه، وقف ‹‹هاندسون›› أمامه، وجعل ينظر إلى ‹‹نانسي›› وكأنه يستأذنها، لكن عينيها كانتا جامدتين لم تعبر عن قبول أو

رفض، واستمر ‹‹أنور›› ماداً يده لم ينزلها وقد أبرز صدره بشجاعة فائقة وأظهر عزة في ملامحه أكثر مما كان يظهر، ولما طال الانتظار قال بصوت الواثق:

- سيد ‹‹هاندسون›› .. إنني وبكل ثقة أقدم اعتذاري للحماقة التي أقدمت عليها ‹‹نهاد››. ولأنها أختي ومن لحمي ودمي أقدم اعتذاري وأسفي البالغين ... وصدقني بأنني قمت بما يمكنني القيام به في هذه الظروف نحوها ... ولو انه غيرها ممن لا يعذر لما اعتذرت دونه لأنني لست من فعل فعلته، وعليه هو تحمل وزرة وعلي أنا مد يد المساعدة، إلا أنه يجب علينا أن نراجع مواقفنا نحو أسباب هذه المصائب التي تتقاذف علينا ... ونتفهم الآخرين ونحترم حقوقهم.

وبينما هو يتكلم كان ‹‹هاندسون›› قد مد كفه مصافحاً إياه وشاداً على يده مؤيداً له، وهو يهز رأسه استحساناً لقوله.

استمر ‹‹أنور›› في حديثه:

- إن ما مرت به ‹‹نهاد›› - سيد ‹‹هاندسون›› - من ظروف نفسية صعبة من جراء تحرش ‹‹كيم›› لها وسكوتكم على ذلك يجعلنا أن نتفهم ما قامت به رغم الخطأ الفادح الذي ارتكبته.

أتمنى يا سيد ‹‹هاندسون›› - ثم التفت إلى ‹‹نانسي›› - وأتمنى يا سيدة ‹‹هاندسون›› أن ننظر إلى الأسباب التي جعلت ‹‹نهاد›› تحرق كوخكم التي شاركت في بنائه.

ولو أننا قضينا على الأسباب لما حصدنا هذه النتائج، لكننا كبشر ونزعم أننا متحضرون فإنه يجب - من وجه نظري - أن نقضي على الأسباب السابقة ولا نسمح بأن تتكرر مرة أخرى .. ولن ننسى خطأنا وخطأ ‹‹نهاد›› كما أرجوا ألا تنسوا أخطاءكم.

دعونا نعيش على هذه الجزيرة بسلام وتراحم ووئام، حتى يأذن الله لنا بالخروج منها، لأننا إن لم نفعل فإننا نقوم بإتعاس أنفسنا بأنفسنا.

ثم شد مرة أخيرة على يد ‹‹هاندسون›› تأكيداً وأطلقها، لم يكن ‹‹كيم›› بعيداً عن سماع هذه الكلمات العظيمة التي أطربت قلب ‹‹هاندسون›› وأرضت ‹‹نانسي›› إلى حد ما، لكنه ما إن انتهى ‹‹أنور›› من كلامه حتى أطلق ضحكة سمجة ملؤها الاستخفاف حيث قال:

- عجباً يا ‹‹أنور››، تقومون بالاعتداء على الناس وتظلمونهم وتحرقون مساكنهم ثم تقلبون الطاولة عليهم.

حُشي ‹‹أنور›› غيضاً فسلط بصره عليه بقسوة بالغة وقبل أن يرد عليه ما شاء، قال ‹‹هاندسون›› موجهاً حديثه لكيم:

- أخرس يا ‹‹كيم›› ... أنت لا تعرف السلام أبدا ولا يعجبك أن يسود الوئام بين الناس.

كانت فأس ‹‹كيم›› في يده فرماها جانباً وقال:

- للأسف يا سيدي أنت لا تعرف حقيقة ‹‹أنور›› هذا .. ‹‹أنور›› .. رجل جبان ودنيء يخفي جريمته خلف أخته المسكينة ... يا سيدي ‹‹هاندسون›› .. اعلموا جميعاً أن الذي أشعل النار في كوخكم هو ‹‹أنور›› لا ‹‹نهاد›› .. وإنما اعترفت ‹‹نهاد›› بالجريمة حماية لأخيها.

انقض ‹‹أنور›› على ‹‹كيم›› وأطبق بكفيه على حنجرته حتى أسقطه أرضاً ولولا تدخل الحاضرين لأجهز عليه لكنهم سحبوه بقوة من فوقه .. وهو يزبد ويزمجر.

أما ‹‹كيم›› فقد جلس على ركبتيه وأخذ يسعل ويشهق من شدة قبضة ‹‹أنور›› على حنجرته وهو يشير بيده مهدداً حتى إذا أبان حديثه اقسم أن الذي أشعل النار إنما هو ‹‹أنور››.

لم يستطع ‹‹هاندسون›› أن يصدق .. وأخذ بيد ‹‹أنور›› الذي بلغ به الغضب مبلغاً اشتعل منه فؤاده حتى شعر بأنه قد أوقد في جوفه ناراً.

حتى إذا أوصله إلى كوخه قال له ‹‹هاندسون›› بهدوء:

- أرجوك يا ‹‹أنور›› .. الزم كوخك هذا اليوم حتى يهدأ الأمر.

هز ‹‹أنور›› مجيباً ودخل إلى الكوخ كأنما يتخبطه الشيطان من المس ... حتى إذا وصل فراشه هوى عليه وتمدد وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

كانت ‹‹نهاد›› تراقب الموقف من بعيد عند البحر حتى وصل أخوها الكوخ ودخله أقبلت بصنارتها التي لم تجلب معها ولو سمكة صغيرة للعشاء، فلما دخلت وهي خائفة سلمت بهدوء على ‹‹أنور›› الذي أخذ تنفسه العنيف يهدأ، فرد السلام بزفرة حرى كادت تلفظ كبده معها.

دخلت وهي تلف خيوط سنارتها .. والتزمت الصمت بينما شرعت بشيء من العصبية في ترتب بعض مواعينها القليلة وإن كانت لا تحتاج إلى ترتيب وأخذت تلتفت بين المرة والأخرى إلى ‹‹أنور››، وكأنها تريد أن تقول كلاماً لكنها فيما يبدو خائفة.

فلما هدأ تنفسه طلب منها قليلاً من الماء فجوفه يلتهب عليه من شدة الغضب والقهر.

جاءته بقدح الماء ومدته بيد مرتجفة، فأمسك ‹‹أنور›› يدها وقال بصوت حنون:

- ما بك يا أختي؟ لما ترتجفين؟!

- الحقيقة يا ‹‹أنور›› ..

ثم نكّست رأسها وسكتت.

رفع صوته وقال:

- الحقيقة ماذا؟ ماذا تريدين أن تقولي؟

فردت وهي تستجمع شجاعتها:

- أريد أن أسألك .. ألا تعلم أنك أنت الذي أشعلت النار في كوخ ‹‹آل هاندسون››؟

اتسعت حدقتاه وقال بصوت مرتفع:

- ماذا؟

وضعت يدها على فمها لتكتم بكاء شاء أن يخترقه وقالت:

- لم أكن أنا الذي أشعلتها، و إنما تحملتها دونك لألا تصاب بأذى.

- أصاب بأذى وأنا الذي لم أحرق الكوخ؟!

فقالت بصوت خفيض جداً وهي تهز رأسها مؤكدة كلامها:

- بل أنت، فقد جئت تلك الليلة من الخارج وكنت أنا قد استيقظت من نداء ‹‹سالم›› لك ثم دخلت أنت ونمت على فراشك.

جلس ‹‹أنور›› وكفّ رجله اليمنى ووضع مرفقه على ركبته اليسرى المنتصبة وكفه على جبهته وأطرق قليلاً، ثم قال لأخته:

- يا للمصيبة .. ليس مستبعداً أنني كنت في حالة ‹‹سرنمة›› ، حيث أحرقته وأنا نائم . يا للهول هل عادت لي حالتي السابقة التي كانت تنتابني وأنا صغير.

- ولكنني سمعت ‹‹سالماً›› حينما ناداك ولم تجب.

- صدقيني إنني لا أتذكر شيئاً أبداً، أنت تعرفين أنني كنت وأنا صغير أسير وأصنع أشياء وأنا نائم .. لكن العجيب أنني لم أستيقظ من حرارة النار وصوت سالم.

ثم التفت نحو الباب وقد غصته العبرة وقالت بصوت مخنوق.

- ‹‹إنا لله و إنا إليه راجعون››.

قالت ‹‹نهاد››:

- ولكن ما الذي جعل ‹‹كيم›› يشهد اليوم أنك أنت الذي أحرقت الكوخ .. بعد أن كان مؤكداً أنني أنا الذي أحرقته.

أنت لا تعرفين خبث ‹‹كيم›› ... فقد اتهمك لأنه يرى أنهم سيؤذونك وأنت بالنسبة لي أعظم شيء عندي وبهذا سأقوم بحماقة أعظم، لكنه حينما رأى أنهم قد عفوا عنك غضب وكان غضبه أشد حينما جئت لأعتذر وبدأت المياه تعود إلى مجاريها، وهو يرى أنه ليس من مصلحته أن يكون هناك تقارب حميم بيني وبين ‹‹آل هاندسون›› هكذا - على الأقل - يظن.

ثم نظر إلى أخته بسرعة وكأنه تنبه لشيء غاب عنه، وبسرعة قام من فراشه وهرول خارجاً من الكوخ واتجه نحو الجبل القريب وأخذ ينادي بقوة وفي يديه حجارة صغيرة ملأها من الأرض.

- ‹‹سالم›› .. ‹‹سالم››، أين أنت؟

وجعل يرجم نحو كهف ‹‹سالم›› الصغير لكنه سمع الإجابة من خلفه، حيث كانت ‹‹سوزان›› ترد عليه بغلظة:

- ما بك أيها الرجل؟!... هل تريد أن تحرق بيتنا نحن أيضاً؟!

التفت إليها وخفض صوته قليلاً قائلاً:

- عفوا .. أريد زوجك لأمر هام.

- على كل حال هو ليس الآن هنا، ذهب مبكراً يبحث عن أخشاب لكوخ أهلي.

- أرجو أن تخبريه بأنني أريده إذا عاد من هناك لأمر هام.

سكتت ولم ترد عليه وواصلت صعودها إلى الكهف لكنه فهم السكوت بالقبول.

ثم عاد وهو لا يدري ماذا يصنع.

أيقن أن الذي أخبر ‹‹كيم›› هو ‹‹سالم››، لأنه هو الذي رآه تلك الليلة كما قالت ‹‹نهاد›› وخاصة بعدما لاحظ ذلك التقارب المريب الذي ازداد بعد حريق الكوخ ذلك التقارب الذي كان بمثابة خضوع وخنوع وخوف واستكانة كما يراه ‹‹أنور››.

هدأ ‹‹أنور›› قليلاً ومضى الليل عليه حتى إذا ادلهمّ صبّ برده على جوفه فانسل ما في جوفه من الغضب المتأجج فراح في نوم عميق.

كان ‹‹أنور›› وقد نوى أن يحقق مع ‹‹سالم›› وكيف رآه ولماذا نمّ عليه؟ أو لماذا لم يوقظه قبل أن يرتكب خطيئته؟

انشغل ‹‹أنور›› وأخته بالتفكير بالخروج من هذا المأزق والتكفير عن هذا الذنب الذي ارتكبه ‹‹أنور›› في حق جيرانهما.

وفي الجانب الآخر كان للخير ميدان يركض فقد كان ‹‹هاندسون›› و‹‹نانسي›› و‹‹سوزان›› يتباحثون بعقل وروية للتعامل مع الوضع الذي وصلت إليه الجزيرة.

هم يعلمون أن ‹‹أنور›› لا يملك من السلاح ما يستطيع أن يدافع به عن نفسه فكيف بالتهديد، وهم متأكدون أنه لن يستطيع أن يهزمهم بميزان القوى الذي في صالحهم، لكنهم يعلمون أنه لن ينتهي حتى يسبب لهم آلاماً موجعه تبقى معهم ما داموا أحياء، بل ستبقى ندبة في ضميرهم ولن ينتهوا إلا بجريمة شنعاء يرفضها الضمير الحي، ثم إنهم لم ينسوا أبداً أن ‹‹أنور›› وأخته عنصران هامان جداً في توفير وسائل العيش لهم من خلال زراعتهما الناجحة وأعشابهما التي يقايضان بها ويأتي من أجلها المدد.

وفي مجلس العائلة دار حديث طويل أنقل لك أهمه:

قال ‹‹آل هاندسون›› لزوجته وابنه:

- اسمعوا ... أنتم تعرفون ما الذي حصل في الآونة الأخيرة من مشاكل ومقاتلة بين ‹‹أنور›› و‹‹كيم›› والحريق الذي أفنى كوخنا، وما سوف ننتظره من مصائب قد تكون أعظم. وليس هناك أحد في هذه الجزيرة إلا نحن وهم، ولو عشنا في شقاق ونزاع لقضينا حياتنا في تعاسة وشقاء

وخسارة، وغفلنا عن الهدف الرئيسي لنا وهو الاهتمام بوسيلة تنقذنا من هذه الجزيرة، يجب أن ندرك الحقيقة ‹‹كيم›› .. ليس منا .. و‹‹أنور›› ليس منا ... أدرك أهمية ‹‹كيم›› بالنسبة لك يا ‹‹نانسي›› .. لا بأس لكن يجب أن تدركي أنت بل أنتم جميعاً أهمية ‹‹أنور›› وأخته بالنسبة لنا جميعاً.

يجب أن نكسبهم جميعاً.... يجب أن نجعلهم طرفي وفاق لا نقيض .. ما الذي يعجزنا أن نجعلهم كذلك؟!

قاطعته ‹‹نانسي›› قائلة:

- أقدّر اهتمامك يا ‹‹هاندسون›› .. لكن يجب أن تفهم أن هناك خطوطاً حمراء يجب ألا تتجاوزها بالنسبة لكيم.

قال ‹‹هاندسون››:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد .. أنه يجب أن نؤمّن لـ‹‹كيم›› الأمن ولن نستطيع أن نفعل ذلك ما لم نؤمن له المكان الآمن.

- تقصدين ما أخذه من الأرض؟

- أقصد كل شيء.

نظر ‹‹هاندسون›› ملياً في وجه ‹‹نانسي›› وقال مستعطفاً:

- عزيزتي ‹‹نانسي›› ... أرجوك ... افهميني .. أرجوك امنحيني فرصة لأصنع شيئاً مفيداً بمساعدتكم كلكم ... أنا لا أسعى لضرر ‹‹كيم›› .. ولكنني أسعى للعمل من أجل أن نعيش نحن

و«كيم» وآل «أنور» في أمان وسلام ... بالتأكيد أنت عاقلة .. ومهما كان «أنور» وأخته ضعيفين فإنهما لن يتركانا نتمتع وهما يرزحان تحت الظلم.

أؤكد لك أن هذا النكرة - «سالم» - واعذريني يا «سوزان» .. أؤكد لكم جميعاً أنه لن يبقى هكذا سكراناً بحب «سوزان» بالتأكيد سيرجع إلى «أنور» ويتّحد معه.

استأذنت «سوزان» أباها بالحديث فأشار لها أن تكلمي فقالت:

- الذي تقوله يا أبي هو عين العقل، نحن نحتاج إلى سلام ووئام .. نحن نحتاج إلى المحبة والمودة نحن نحتاج إلى أن نكون كأسرة واحدة .. ولن نكون كذلك حتى نتساوى في الحقوق، ولن نكون كذلك حتى يشعر الجميع أنهم في درجة واحدة من الإنسانية.

ابتسم «هاندسون» وأبدى إعجابه بكلامها وبنظرة استحسان إلى «نانسي» وكأنه ينتظر منها تأييداً لكلامها.

فقالت:

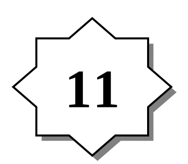
- ولكن كيف نفعل ذلك؟

قال «هاندسون»:

- الأمر بسيط من الناحية النظرية حيث سنقوم بحل جميع المشاكل العالقة من خلال عدل قائم على رد المظالم إلى أهلها والتنازل عما لم يكن في الإمكان رده، والاعتذار عما بدر من كل مخطئ.

صدقيني عالمنا هذا الصغير هو نموذج رائع للعالم لو استطعنا أن نتحكم فيه لظننا أن العالم بأسره سيستطيع أن يتناسى آلامه ويرد مظالمه، ويعيش واقعه يومه بيومه ويترك تلك النصوص التي وإن صدقنا بها للزمان ولمن بعدنا بقرون فالحياة قصيرة.

ঌঌঌঌঌঌঌ



فوجئ ‹‹أنور›› وهو الذي قد عزم على تقديم اعتذاره واستعداده بإعادة الكوخ بنفسه بـ‹‹هاندسون›› مقبلاً ومعه ‹‹نانسي›› لابسين أجمل ما عندهما من الملابس وقد ارتسمت على محياهما أجمل ابتسامة رآها على هذه الجزيرة منذ أن نزولها.

كان في صباحه الذي لم يعد لجماله ذوق ولا رائحة ينشر بعض أنواع الأعشاب الخاصة على حصباء قريبة من كهفه، لكن ذلك الصباح بدأ يتزين بألوان الطيف فقد كان سلام ‹‹هاندسون››

و‹‹نانسي›› مبشراً بالخير، فأقبل عليهما مهللاً ومسهلاً. حتى إذا صافحهما بحرارة، أجلسهما في مجلسه الرملي الصباحي، ونادى جذلاً في أخته كي تأتي بالحليب الساخن فلديه ضيوف أعزاء .

جلس الثلاثة على الرمال وكان ‹‹أنور›› منشغلاً بقراءة صفحات وجهيهما، وكأنه يرى ما يسره .. وبعد كلمات مجاملة معتادة قال ‹‹هاندسون›› بخبرة الشيخ ورزانة الكهولة:

- صديقي ‹‹أنور›› .. في الحقيقة جئنا هذا اليوم أولاً لنسلم عليكما، ونتأسف لما أصابكما في الأيام السابقة من العنت، والمشاكل التي لا يخلو مجتمع أو ربما أسرة من أمثالها، نحن شعرنا وبأسف إلى ما تعرضت له الدكتورة ‹‹نهاد›› وما سببه لها الحريق من مشاكل نفسية وشعرنا وبأسف بما سببه اتهام ‹‹كيم›› لك في حرق الكوخ. .لكننا، أنا وعزيزتي ‹‹نانسي›› أحببنا باسم ‹‹آل هاندسون›› أن نمد أيدينا بعد قلوبنا بالمساعدة والمحبة.

غمغم ‹‹أنور›› وشعر بالحرج، وظهرت على وجهه ابتسامة خجلا ثم أبان:

- بل أنا الذي أريد أن أعتذر.

بادر ‹‹هاندسون›› قائلاً:

- أرجئ اعتذارك إلى وقت آخر يا صديقي .. وأرجوا أن تسمع حديثي إلى نهايته.

- تفضل ..

- كما تعلم بأننا نحن هنا في الجزيرة لا يتعدى عددنا عدد أصابع الكفين وكل واحد منا في أمس الحاجة إلى الآخر، بل إن واقعنا يتحتم علينا أن نتعايش بسلام ووئام ورحمة، والذي نلاحظه أن التوتر بدأ سمة حياتنا، مما جعل الحياة تعيسة.

فسارع ‹‹أنور›› بالقول:

- نعم منذ أن جاء ‹‹كيم››.

قال ‹‹هاندسون››.

- دعك من هذا، فربما لو لم يكن ‹‹كيم›› موجوداً لكان هناك بعض الصدام النفس البشرية طماعة، وطالما استعبد الإنسان أخاه الإنسان لينعم هو ويتعذب ذاك.

- قال ‹‹أنور››:

- ألا تذكر سيد ‹‹هاندسون›› كيف كانت حالنا قبل أن يأتي كيم؟

- اذكر، ولكن لعل ‹‹كيم›› هو الذي قام بما سيقوم به غيره لو لم يأت.

- لا أعتقد، إنه شرير حاقد ..

بدأ الغضب يدب في نفس ‹‹نانسي›› فهي لا ترضى أن يشتم ‹‹كيم›› لكن ‹‹هاندسون›› تدارك الأمر بأن همزها بكفه على ركبتها لتصبر، ثم قال:

- بصراحة يا ‹‹أنور›› نحن هنا هذا اليوم من أجل أن تصالح وننسى الماضي.

كانت ‹‹نهاد›› قد وصلت بالإبريق وبينما هي تنزله إذ سمعت كلمات ‹‹هاندسون›› ونسيان الماضي. وهي التي تجرعت مرارة التحرش من ‹‹كيم›› فجاشت نفسها وغمغمت وأنزلت الإبريق بقوة على الأرض ثم انصرفت.

تبعها الجميع بأنظارهم وفهموا مشاعرها .. فقال ‹‹هاندسون›› مخاطباً ‹‹أنور››:

- بالطبع أعذرها، لكن الخطأ وقع ولم يعد بالإمكان تغييره، لكن مهما يكن فبالإمكان تصحيح الوضع الحالي .. وأرجو أن تدرك يا ‹‹أنور›› أننا نحن ‹‹آل هاندسون›› أكثر المتضررين من هذه الحماقات التي حصلت على هذه الجزيرة.

قاطعة ‹‹أنور›› قائلاً:

- أقدر وآسف لما أصابكم من أضرار، لكن آمل أن تراجع بعين العقل مدى الضرر الذي لحق بنا، أعرف أن كل واحد يرى ما بدائرته أكثر مما يراه غيره وأعرف أن قرصة ناموس في جلده أكثر ألماً من عضة حية في جلد آخر، لقد اغتصبت أرضنا يا سيد ‹‹هاندسون››، وسد طريقنا وأخذ أكثر ماء النبع الذي يروي مزرعتنا وتحرّش ‹‹كيم›› بأختي و....

كان ‹‹هاندسون›› يشير بيده، لتهدأته ثم قال:

- أعرف .. أعرف الأضرار التي لحقت بكم، ولكن كما قلت فنحن أيضاً أصبنا في منزلنا الوحيد بل لقد استبيحت هيبتنا، ولكن ولأننا نحن الكبار، وأعتبر نفسي في منزلة والدكم أو أخيكم الأكبر هذا هو شعور عزيزتي ‹‹نانسي›› أيضاً.

وكعادته قاطعه ‹‹أنور››:

- نعم ولكن أرجو أن توقفوا دعمكم الظالم لـ‹‹كيم›› ..

غضب ‹‹هاندسون›› ورفع صوته:

- أرجوك يا ‹‹أنور›› ...اصمت حتى أكمل، لماذا لا تعرف كيف تنصت، نعم أنتم هكذا، لا تعرفون متى تنصتون ومتى تتكلمون.

وبحركة عصبية أطبق ‹‹أنور›› بأصابعه الأربع بهدوء على فهمه يعني صمتّ.

فواصل ‹‹هاندسون›› حديثهك

- اسمع نحن جئنا للإصلاح، قد نعتذر وقد لا نعتذر عما قدمناه لـ‹‹كيم›› من دعم. ولكن.

قاطعت ‹‹نانسي›› زوجها وقالت:

- ولكن يجب أن تعلم بأننا قدمنا ونقدم الدعم لـ‹‹كيم›› لا من اجل سواد عينيه ولكن من أجل خدمتنا لأنفسنا .. من وجهة نظرنا أننا نسعى للأفضل بالنسبة لمستقبلنا، قد نكون على حق

وقد لا نكون على حق، لكننا وجدنا أن ‹‹كيم›› ومنذ زمن أكثر مناسبة لأهدافي الخاصة بي أنا ‹‹نانسي›› يجب أن تعذرنا من هذا الوجه، ولك ألا تعذرنا من وجه آخر هو وجهة نظرك من زاوية مصلحتك أنت.

خرجت ‹‹نهاد›› عن صمتها وهي تستمع من داخل الكوخ:

- يا لكم من أنانيين ظلام..

ابتسمت ‹‹نانسي›› بكبرياء وهي تنظر إلى حيث ينبعث الصوت ثم استأنفت حديثها:

- إنكم – وللأسف – لا تعرفون كيف تقدرون المصالح، أنتم تنتظرون أن ينظر الناس من زاويتكم أنتم، تنتظرون العطف والحنان من الآخرين من خلال تظلمكم وشكواكم، إنكم تحتاجون إلى أن تتعلموا دبلوماسية تفتقرون إليها، ولست من يجب أن يخبركم بها، دبلوماسية تحفظ حقوقكم وكرامتكم.

قال ‹‹أنور›› وقد شده الحديث:

- أرجو أن تفسري لي أكثر يا سيدة ‹‹هاندسون››.

- لقد خشينا أن صاحبك حين جاء سيخدم موقفكما ويقوي شوكتكما وستستطيعان أن تقدما موقفاً ايجابياً فعالاً لأحوالكما في هذه الجزيرة، ولكن للأسف دبّ الخلاف بينكما حتى خشينا نحن الأغراب من هذا الخلاف الذي صب في صالح ‹‹كيم›› وصالحنا.

أخذ السيد ‹‹هاندسون›› دوره في الحدث:

- إننا كنا نأمل ألا يكون اتفاقكما مقلق بالنسبة لنا وأن يساهم في وضع حلول مفيدة للخروج من هذه الورطة التي نحن فيها أو على الأقل تطوير أسلوب حياتنا. إلا أنه كما يقال: مصائب قوم عند قوم فوائد .

خرجت من بين أضلع ‹‹أنور›› ارتداد زفرة كادت تفجر صدره، ثم قال وكأنه يريد حلاً عاجلاً:

- والآن ما هو المخرج؟ ماذا لديكم سيد ‹‹هاندسون››؟

قال السيد ‹‹هاندسون››:

- المخرج هو أن يتنازل كل واحد منا عن بعض حقوقه .. وأن يقدم اعتذاره للطرف الآخر ولننس الماضي من السيئات، نريد السلام يا ‹‹أنور››.

قال ‹‹أنور››:

- جميل ... جميل جداً اسم السلام، نعم السلام .. ولكن ما رأيك لو سبق السلام رد المظالم إلى أهلها، أنا لا أطالب بالمستحيل، لا أطالب بشيء يصعب تنفيذه. أطالب فقط بأرضي التي اغتصبها ‹‹كيم›› وأصبح مشرفاً على من فوقي أطالب بفتح الطريق فقط وأعتقد أن هذه المطالب معقولة جداً. أليس كذلك؟

هز ‹‹هاندسون›› رأسه مقدراً طلبه لكن ‹‹نانسي›› قالت:

- أنت تطالب بشيء مستحيل يا ‹‹أنور››، لقد أفنى ‹‹كيم›› أيامه الماضية كلها في إصلاح هذه الأرض والطريق يضر به كثيراً ولو فتحه فسوف يقسم أملاكه إلى جزأين وسيزعجه ذلك بالطبع.

ضحك ‹‹أنور›› بسخرية، وقال:

- عجباً لكما .. ماذا تعتقداني؟ هل أنا مهان إلى هذا الحد عندكما؟ .. أليس لي في رأيكما عزة ولا كرامة؟ .. لا أستغرب أيضاً أن تطلبا مني أنا وأختي الخروج من كوخنا لنتركه لـ‹‹كيم››.

كان ‹‹أنور›› يتكلم وقد احمرت عيناه من الغضب لكن ‹‹هاندسون›› قال بهدوء:

- هوّن عليك سيد ‹‹أنور›› سنتدارس هذا الأمر ولكن من أجل الوصول إلى حلول يجب أن تتنازل وتتغاضى عن أشياء تخصنا، فلن تحصل على كل شيء إذا أردت السلام والوئام.

قال ‹‹أنور›› بأسلوب فيه شيء من الحدة:

- اسمع سيد ‹‹هاندسون›› .. إن كنت سأتنازل فسأتنازل وأتناسى إن استطعت ما فعله بأختي وأعتبرها غلطة يجب أن يعتذر عنها، سأتنازل عن اعتدائه هو و‹‹جو›› عليّ وأنساها. سأتنازل عن إساءته اللفظية وكأنها لم تكن، وسأتنازل عن الأرض التي وعدته بها وأعطيته إياها أنت وهي أرضي قبله. لكن اغتصابه أرضي الأخيرة و إغلاقه طريق الغابة ....

ثم التفت إلى ‹‹نانسي›› وتابع حديثه: يجب أن لا تسمحا بأن يبقى الظلم على ما هو عليه، فهذا يعتبر جزءاً عظيماً من شرفي وسيكون قنبلة موقوتة مهما كتبت ‹‹بروتوكولات›› ووقعت عقود صلح!.

وعد ‹‹هاندسون›› ‹‹أنور›› خيراً ثم انصرف مع ‹‹نانسي›› ولم يشربا شيئاً من الحليب الذي برد في الأكواب.

ΩΩΩΩΩΩ

حاول ‹‹هاندسون›› و‹‹نانسي›› التوصل إلى حل وسط لكن تعنت ‹‹كيم›› الذي كان يظهر التظلم والخوف من المستقبل وتحريض ‹‹نانسي›› للوقوف معه أفشل محاولات السعي إلى الصلح الذي كان ‹‹أنور›› يتشوق له، حيث بدأ التوتر يسود الجزيرة وحيث بدأت البرودة في العلاقات تسيطر على الحالة الاجتماعية بين جميع الأطراف .

وفي إحدى الليالي التي نامت فيها ‹‹سوزان›› عند أهلها خرج ‹‹سالم›› مهموماً يسير على شاطئ البحر متجهاً غرباً إذ اقترب من الجبل سمع حديثاً رقيقاً وضحكاً لا ينكره، إنها ‹‹سوزان››

تحادث أحداً ما، لكن من الغريب أن تخرج في هذه الليلة التي شق نصف القمر ظلماءها وهدأت ريحها.

وقف مكانه ثم توجه شمالاً نحو الصخور ليختبئ خلفها. وكلما اقترب نحو الصوت عرفه وكانت المفاجأة كالصاعقة، إنها ‹‹سوزان›› تحادث ‹‹كيم›› الخبيث بشحمه ولحمه..

قالت ‹‹سوزان››:

- لكنك قاس جداً على ‹‹أنور››..

ضحك ‹‹كيم›› وقال:

- البركة كل البركة في أمك.

فقالت بخبث وهي تضاحكه:

- في أمي فقط؟!

- وفي أبيك وفي ‹‹جو›› القوي.

- ولكن لماذا تريد هذه الأراضي كلها .. ولماذا تبالغ في أذى ‹‹أنور›› وأخته؟

- لعلك لا تعرفين الحقد، إنني مليء إلى نخاعي بالحقد عليهم.

- ولماذا؟

- أوه، هذه قصة قديمة لا تعرفينها.

تعجبت ‹‹سوزان›› من هذه القصة القديمة مع أنهما لم يلتقيا إلا في الجزيرة.

كان ‹‹سالم›› يستمع وقلبه يغلي غيرة على ‹‹سوزان›› أما ما يسمعه من ‹‹كيم›› فكان لا يهمه كثيراً لأنه يعرفه والغيرة طغت على همه. حتى سمعه يقول:

- حبيبتي ‹‹سوزان››، أنت تعرفين أنني لم أطلبك للزواج لأنني أعرف أنني لو خطبتك لقتلتني أمك وربما تكرهني، هي تعرف أنني أواصلك لكنها لا ترغب أن تكون حماتي.

ثم سمعها تغمغم ثم أبانت:

- وأعرف أيضاً انك تريد أن تستخدمني لصالحك في تحييد ‹‹سالماً›› أليس كذلك؟!.

- نعم، قد يكون كذلك، وخاصة بأنني لم أحرمك.

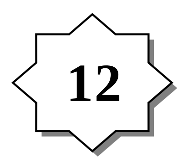
ثم تغيرت الأصوات إلى همهمات فاجرة ..

ثار الدم في رأس الزوج الفاضل وجعلت الغيرة تطبخ فؤاده طبخاً. لكنه فكر وقدر ثم انسحب متثاقلاً وكأنه يحمل على كاهله تلك الصخور التي تصنت خلفها، حتى إذا وصل إلى كهفه انخرط في بكائه بمرارة .

ولم يتأخر في قراره فقد جاء وبأسلوب لبق إلى أهل ‹‹سوزان›› واعتذر عن عدم استطاعته في الاستمرار في عش الزوجية، وشكر لهم الفرصة التي قدموها له في مصاهرتهم ثم طلقها دون أن يفصح عن الأسباب.

لم يكن للطلاق أثر كبير على الأسرة إلا ‹‹سوزان›› نفسها التي اعتبرته إهانة شخصية موجهة لها، وفقدان حضن آخر يسمى زوجها أمام الجميع وكان الطلاق بالنسبة لـ‹‹سالم›› الشعلة التي أيقظت تفكيره وضميره.

ꕥꕥꕥ



تغيّر طقس الجزيرة فجأة ورغم الأمطار المتكررة وبعض الرياح البسيطة إلا أن العيش لم يكن صعباً في هذه الجزيرة.

لم ينه ‹‹آل هاندسون›› بناء كوخهم بشكل جيد لا لعدم توفر مواد بناء كافية ولا لعدم توفر وقت مناسب للبناء ولكن لانشغالهم ببناء كوخ ‹‹كيم›› ووجود المركب الفاره الذي يأوون إليه ، لكنه كان مأوى غير آمن.

أما ‹‹أنور›› و‹‹نهاد›› فقد كانا كل يوم يفتلان الحبال من ليف النخل ويحيكان كوخهما حتى أصبحت جدرانه أشد ما يكون.

وذات عشية أقبلت رياح شرقية عاتية جعلت تقلب مواعينهم وتطير بفرشهم فبقوا متماسكين داخل أكواخهم لأكثر من نصف ساعة بلغت قلوبهم الحناجر.

فلما أن هدأت الأعاصير خرج ‹‹أنور›› وقد علا بكاء ‹‹سوزان›› و‹‹نانسي›› وخوار ‹‹جو›› المكان، فصاح فيهم قائلاً:

- تعالوا بسرعة، ودعونا نصعد إلى الجبل.

أقبلوا عليه وفي أيديهم ما تبقى من اللحف والفرش، فأشار عليهم بالصعود إلى الجبل حيث كوخ ‹‹سالم›› فصعد الجميع وقد حمل ‹‹أنور›› و‹‹نهاد›› وساعدهما الآخرون ما استطاعوا حمله من كوخهما، مترقبين موجة أخرى، من الأعاصير.

وما إن جمعهم الكهف المغطى حتى زمجرت الريح مرة أخرى وقصف الرعد الجزيرة قصفاً كاد يخلع قلوبهم، ولمع البرق حتى كاد يخطف أبصارهم ثم انهمرت الأمطار كأفواه القرب وكأنه يصب من السماء صباً.

ومن شدة الخوف التصق بعضهم ببعض.

واستمرت الريح والأمطار آخر النهار وطوال الليل.

وفي الصباح والجميع متكدسون نام من نام منهم على أعضاء الآخرين وسهر من الخوف من سهر.

وفي الصباح بدأ النور يتخلل بين الأعواد، ينبئ بنهار مضيء بما تجود به الشمس خلف السحب المتراكمة، لكن الأمطار توقفت ولم يبق إلا بعض الزخات وقد هدأت الريح فخرج من خرج منهم، وكانت صرخات ‹‹سوزان›› مدوية .

- يا إلهي .. يا إلهي .. أين الأكواخ؟ أين ......

خرج الجميع إلى الصخور لينظروا إلى ما صنعت الأمطار والسيول فكانت المفاجأة الفاجعة، لقد اختفت الأكواخ جميعها والمزارع وكل الحدود والحواجز التي صنعوها حتى العنزتين وجفارها والدجاجات وكتاكيتها، ولم يبق إلا الجزيرة على ضوء الشمس الباهت تبتسم ببلاهة وكأنها أزاحت كل غريب على ظهرها

انهارت معنوياتهم جميعاً، وانشغلت النساء كلهن بالبكاء، أما الرجال فقد انحطت ظهورهم والتزم كل واحد منهم صخرة فاقتعدها وجعل يحاول استيعاب المصيبة التي حلت عليهم فجأة، وإن كان اليأس هو الحكم الذي سيطر على أفكارهم وغطى على أحلامهم.

وما هي إلا لحظات حتى صرخ ‹‹هاندسون››:

- المركب ... المركب ...

لحق به الرجال وهم يركضون متجهين إلى الخليج ليروا مركب الراسي وما حلّ به.

وصلوا إلى المركب فحمدوا الله أن وجدوه قد نشب بين صخور على الشاطئ حيث قذفت به الأمواج وفيه بعض المياه التي تسربت إلى داخله رغم إحكام بابه وتصريف سطحه.

جلسوا جميعاً أمامه. على الرمل المبلل، وكأنهم كانوا يحملون أثقال الرصاص فأزاحوها.

أخذوا يتلفتون في وجوه بعضهم البعض، وكأن هناك ابتسامات ذات معنى مخفيه تكاد تخرج لولا أن حروف الزمان أرهقتها، لكن ‹‹أنور›› قال كلمة فتحت أبوابها:

- ‹‹الحمد لله›› على السلامة أيها الرفاق..

قالوا جميعاً

- ‹‹الشكر للرب››، على كل حال.

وكل عبّر بحمد الله على طريقته ودينه.

قال ‹‹هاندسون›› وبهدوء ملؤه الأسى والحزن:

- أرأيتم كيف هي الحياة؟! كل شيء انتهى وزال ولم يبق إلا نحن.

هز الجميع رؤوسهم موافقين.

ثم استأنف ‹‹هاندسون›› حديثه قائلاً:

- والآن ماذا عسانا أن نفعل؟

وبينما هم يفكرون ويفكرون، إذ بصرخات النساء تتعالى من فوق الجبل.

نهض الجميع وانطلقوا بكل سرعتهم نحو النساء وكانت الفاجعة.

فقد وجدوا ‹‹نهاد›› مستلقية على ظهرها تتصبب عرقاً، وقد كشفت عن ساقها، و‹‹نانسي›› و‹‹سوزان›› يبكيان ويقولان: أن حية قد عضت ‹‹نهاد››.

- جثا ‹‹أنور›› على ركبتيه عند رأس أخته، رفعه على فخذه وقال والعبرة تكاد تخنقه:

- لا عليك .. سوف تشفين بإذن الله.

وبسرعة خلع قميصه وشق منه رباطاً وربطه فوق لدغة الحية ثم انطلق إلى جذع الجبل من الجهة الأخرى ليحضر عشبة تصلح علاجاً لهذه الحالة، وهو ينادي ‹‹سالماً›› كي يوقد النار حتى يأتي.

لم يجد ‹‹سالم›› ناراً فقد أطفئت نارهم جميعاً. جاء ‹‹أنور›› بالنبتة لكنه أصيب بالإحباط لعدم وجود نار يهيئ بها العلاج فأخذ يلوك العشبة ويعطيها أخته لتلوكها لكنها تخدرت وزاد العرق في تصببه منها بغزارة وضع العشبة التي لاكها على الجرح، لكنه سمع كلمات لم يفهمها ... فقرب سمعه منها وقال بصوت متهدج:

- لبيك يا أختي ..

فقالت بصوت ضعيف جداً

- أرجوك اهتم بنفسك، وسامحني، لا إله إلا الله.

ثم ثقل رأسها .. وفاضت روحها الطاهرة .. ماتت ‹‹نهاد›› العفيفة الصائمة المصلية، ماتت وفارقت حياة الجزيرة التعيسة، لكنها خلفت أخاً أكثر تعاسة بعدها كاد أن يفرق لولا تذكره بعاقبة الصبر والرضا بقدر الله، استسلم ‹‹أنور›› لبكاء مر تجمعت له أحزان الشهور الماضية، والشعور بالذنب والأسى لما تجرعته المسكينة من مصائب بسببه ..

درت حنايا ‹‹كيم›› له رحمة، وكفاك مصيبة أن يرحمك فيها ‹‹كيم›› وأمثاله. فاستنهظه وأخذه إلى غير بعيد مشيراً للنساء في الاعتناء بـ‹‹نهاد››، تجمع الرجال حول ‹‹أنور›› يصبرونه

ويذكرونه بمصير كل إنسان، لكن كلمات ‹‹سالم›› التي تذكره بالله والإيمان وجزاء الصبر هونت شيئاً من هول المصيبة.

كان مظهر ‹‹كيم›› وهو يتألم لألم ‹‹أنور›› ويشاركه عبراته ويخفض له قوله قد أنعش الأمل في قلب ‹‹هاندسون›› المتأثر .

حتى إذا فرغ ‹‹أنور›› من نشيجه، استأذنهم بالصعود إلى الكهف لغسل أخته.

فقام وحملها فكانت كالريشة ثقلاً .. فلم يعد فيها من اللحم إلا ما يكسو العظم هزالاً اقشعر منه جلد وقلب ‹‹أنور›› رحمة وحزناً.

حتى إذا فرغ من غسيلها وتكفينها هبط بها إلى الرجال.

وكان يأمل في أنهم قد حفروا لها قبراً لكنهم اعتذروا آسفين أن لم تبق لهم مسحاة أو فأساً يحفروا بها، فأنزل أخته على الأرض.

قام ‹‹أنور›› و‹‹سالم›› وجعلا ‹‹نهاد›› بينهم وبين القبلة ثم صليا عليها صلاة الجنازة، حتى إذا انصرفا من الصلاة نظر إلى الجبل وصاح بهم.

- هناك .. يأبى الله لـ‹‹نهاد›› إلا أن تدفن في أعالي الجبال.

قالوا:

- كيف؟!

فقال:

- نضعها في ذلك الكهف الصغير ثم نغلق عليها بالحجارة من كل مكان.

ففعلوا وما إن ارتكزت الشمس في كبد السماء مخترقة بشعاعها فوارق تلك الغيوم السوداء حتى انتهى الجميع من دفنها وهم يطلبون لها الرحمة والمغفرة. ولم تتوقف ‹‹نانسي›› و‹‹سوزان›› عن البكاء.

لكن ‹‹أنور›› استأذن الجميع ليخلو بنفسه، ففعل حيث دخلوا هم إلى الكهف يعتصرهم الجوع مع الحزن والخوف، وليس في كهف ‹‹سالم›› ما يسد رمقهم لكن ‹‹جو›› و‹‹كيم›› انطلقا لجمع ما يستطيعون من جوز الهند لعله يوقف موجة الجوع التي انتبهوا لخطرها بعد أن تذكروا أن السيل قد جرف كل ما يملكون من طعام إلى البحر.

وبينما كان ‹‹أنور›› يجتر آلامه فوق الصخور وينظر إلى الغابة التي لا نهاية لها خلفه والبحر الذي لا نهاية له أمامه.

هبت رياح شرقية أهاجت فؤاده ففيها عبير ‹‹نهاد›› التي ضاعف بين يديه في غمضه عين.

لم يستوعب المصيبة. لا يدري أهو في حلم أم في حقيقة؟! أصحيح أن ‹‹نهاد›› ماتت؟!. لا .. إنني في كابوس، أكيد أنا في كابوس، قرص فخذه. لكنه شعر بالألم، لعل الشعور بالألم جزء من ذلك الكابوس الرهيب، يا ليتني أستيقظ.. أستيقظ وأسمع ‹‹نهاد›› تناديني عند عنزتها، إنها بالتأكيد الآن تطعمها وتطعم جفراتها.

وصعد. أنين من أعماق جوفه، هاجت معه عبراته فانخرط في البكاء ثانية. ولم يستطع أن يوقف بكاءه وعويله الذي شعر أن الجزيرة كلها رنت وحنت معه. لم يستطع أن يتحمل حزنه. حتى طار فؤاده، واسود الفضاء كله من حوله حتى وكأنه حبر قائم انسكب على لوحة كئيبة، لبط على الصخرة وأمسك بها خشية على أن يهلك نفسه من فوق الجبل تأثراً لحزنه. حتى حدث نفسه بالتروي من فوق الجبل لولا أنه خاف من عقاب الله.

أكثر من الاستعاذة والاستغفار، ثقلت أركانه وتأرجح حتى أصبح كبندول صدئ، مرت عليه صلاة العصر وهو عنها مذهول، حتى إذا احمرت الشمس وأشرفت على الانغماس في بحر بعيد، استيقظ من غفلته وارتعد من سهوته فاستغفر الله وبحث عن مفحص لصلاته .. فسارع بقضاء صلاة العصر، وما إن انتهى حتى أعقبها بصلاة المغرب وهو يرتجف، حزناً على أخته.. وشعوراً بالجوع والضمأ الذي يعتصره.

فلم يذق الطعام منذ أمس.. إلا أنه خلال الأشهر الماضية قد صغرت معدته وتعود على قلة الطعام.

هبط على ضوء ما تبقى من نور المغرب، وكأنه هائم على وجهه لا يدري أين يذهب. فأخته ‹‹نهاد›› لم تعد هناك. إنها هناك إلى اليمين حيث ترقد وحدها في ظلمة القبر ووحشة الجبل.

واصل هبوطه إلى الوادي ولم ينتبه إلا لصراخ ‹‹كيم›› الذي كان يرقبه، فلما التفت نحو الأعلى فإذا شبح ‹‹كيم›› في ظلمة الغسق يشير وينادي.

- هيا يا ‹‹أنور›› تعال إلى هنا، هيا يا ‹‹أنور››.

عاد ‹‹أنور›› مرة أخرى فصعد إليهم في الكوخ فاستقبلوه كلهم بأكف رقيقه وقلوب حانية، وأجلسوه بينهم وهم يهدئون من روعه ويعزونه، وكان الظلام قد سيطر على المكان واللمس هو الحاسة التي ترشدهم إلى الأماكن لا غير.

وكانت ليلة ليلاء انتهت بمرها المرير، وهمها الغزير، حتى إذا سمحت بإذن الله بانبلاج فجر جديد، صاحت الطيور وكأن شيئاً لم يكن وكأن ‹‹نهاد›› لم تمت، وكأن ‹‹أنور›› وما يحمله من هموم ثقال وأحزان ودموع لا تمثل لهذه الغابة وأحيائها شيئاً يذكر. فالحياة لم تتغير، والقدر لم ولن يتوقف ..

ﮰﮱﮰﮱﮰﮱﮰ

لاحظ ‹‹أنور›› أن المجموعة تعاني من نفاد الطعام وانعدام النار حتى ولو اصطادوا بالفخاخ صيداً فلن يأكلوه نيئاً. وأن الطعام الذي يأكله معهم ما هو إلا جوز هند وبعض الفواكه وأوراق النباتات التي سئمت منها بطونهم التي تعاني من الاضطرابات المؤلمة كل يوم منها.. فانتبه لثالث يوم من مصيبته، إلى أنه قد ادخر شيئاً من الطعام وأشياء أخرى في مكان آمن ففرح فرحاً شديداً. كفرحه بالتفاف أصحابه حوله، وطيب أنفسهم وتفانيهم في التخفيف عنه.

وفيما هو يحادث نفسه وهو مترعاً بالكآبة يجتر آلامه على بطاح الوادي الذي رمى ماؤه الجبار بكل ما صنعه في أشهر ماضية في ساعات.

نادى ‹‹هاندسون›› الذي يسير ويتلفت حيران بما صنعه الله بهم وكيف تحولت حالهم إلى هذا الحال.

استمع له ‹‹هاندسون›› وأقبل إليه وقد رسم الهم والغم والجوع في وجهه أبلغ صورة.

قال ‹‹أنور›› بصوت خفيف وكأنه في قعر بئر:

- ‹‹هاندسون›› ... لقد تذكرت أنني قد خبأت قبل أشهر شيئاً من الحنطة وبعض السلاح في مكان من ذلك الجبل الذي خلف كوخكم، دعنا نذهب لإحضاره فالنساء يتضورون جوعاً.

نظر إليه ‹‹هاندسون›› والفرحة تنشر أنوارها في وجه، ثم قال:

- يا لك من رجل طيب يا ‹‹أنور››، ولكن كيف نوقد النار؟!

رد عليه وقد اتجه بالفعل إلى الجبل:

- سنرى .. المهم تعال معي.

كان ‹‹أنور›› وقبل أن يصل ‹‹آل هاندسون›› إلى الجزيرة وبينما هو يبحث في الجزيرة عما يمكن أن يساعده للخروج منها قد وجد كهفاً في الجهة الأخرى من الجزيرة وفيه رفات رجلين قد أرمت عظامها، ووجد بقربهما أنبوباً وسهاماً عرف أنها آلة صيد قديمة تطلق السهام بالنفخ فيها حيث قد رأى في السابق برنامجاً في التلفاز لقبائل بدائية تستخدمها، كما وجد بعضاً من آنية الصفيح القديم وبعض القطع البحرية والحديدية وسكيناً طويلة استخدمها.

هذه الأشياء اخذ منها ووضع الباقي في كهف صغير ووضع معها بعض الطحين الذي جاء به تجار الأعشاب ليدخرها عند الحاجة، ثم دفنها، ولما جاء ‹‹آل هاندسون›› تركها ولم يأتها حتى اليوم.

ولما وصلا إلى المكان وأزالا ما عليه من تراب وحصى وجدا الطحين لم يصب ببلل مما جعل الفرحة تغمر قلبيهما وخاصة أنور الذي كان قد توقع أن البلل قد أفسده، ثم أخرجا كل شيء.

صاح ‹‹هاندسون›› وقال بفرحة غامرة:

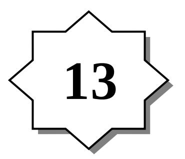
- هذه القطع يمكن أن نوقد بها النار، يا لسعادتنا، لقد ظننت بأننا سنأكل طحين الحنطة عجيناً.

كان الطحين قد تأثر قليلاً من مكثه إلا أن رائحته كان في أنفيهما أطيب من رائحة الطيب.

حملا كل شيء معهما حتى بندق النفخ والقداحة وصفيحتين صغار.

ثم قفلا إلى الكهف يحدوهما فرح لا ينغصه إلا الخوف من انتهاء طعامها القليل.

ﮓﮔﮓﮔﮓﮔﮓ



شعر الجميع أخيراً بقرب كل منهم من الآخر.

وفي جلسة ‹‹حميمية›› اجتمع السبعة يتلاومون ويتعاتبون ويتراضون ويتسامحون..

انطلقت مفاجآت لم تكن تخطر على بال أحد، فبينما هم يتصافون الحديث قال ‹‹كيم›› وبكل شجاعة:

- أيها الأخوة والأخوات، أعلن لكم اعتذاري عن كل ما بدر مني في الأشهر الماضية. لقد كنت أنانياً حتى النخاع. كنت أعتقد أنني إذا امتلكت قويت وإذا تعجرفت هابني الآخرون، بعيداً عن رضا الآخرين وعلى حساب سعادتهم كنت أظن بأنني إذا سيطرت على أراض أكثر سعدت أكثر.

لم أكن أعلم أنني لا شيء بغير الآخرين .. أعترف أن الموروثات التي تعشعشت في عقلي هي التي سيطرت على تصرفاتي حتى أصبحت بلا مشاعر ولا أخلاق، أعترف بأن الحياة لا تؤخذ بالقوة من الآخرين ولكن الحياة الحقيقية والراحة والاطمئنان هي في السلام .. ولن يكون السلام إلا بمشاركة الآخرين الذين يرغبون في السلام حباً في السلام لا إرغاماً لهم على السلام، لأن السلام المبني على الرغبة التي منبعها القناعة والرضا سيطول أمده وتقوى أواصره ويسعد أهله.

أما السلام المبني على القهر والمفروض طلباً للسلامة ما هو إلا سلام مليء بالقيح والصديد لا يلبث حتى يتورم من جديد ثم ينفجر.

كان ‹‹كيم›› يتكلم والجميع قد فغروا أفواههم من حسن قوله، وهم لا يكادون يصدقون كلامه.

قال ‹‹هاندسون›› وقد انشرح صدره:

- عظيم يا ‹‹كيم›› .. عظيم، إنك تقول حكماً بليغة، أنا لا أصدق ما أسمع.

قال كيم:

- أرجوا أن تصدقوني، صحيح أن الأرض التي أخذتها لم تعد لي ولم تعد ‹‹لأنور›› .. فقد أخذها الله من بين أيدينا، وصرنا الآن سواسية. ولكن الذي ارجوه أن تقبل أنت سيد ‹‹هاندسون›› اعتذاري عما بدر نحوك، كما أرجوا أن تعذرني أنت يا سيد ‹‹أنور›› عما بدر مني من إساءات بالغة من محاربة واغتصاب أرض و إغلاق طريق و..... ثم طأطأ رأسه، وخنقته العبرة وسكت.

قام ‹‹أنور›› إلى جانبه وربت على كتفه وقال بصوت حنون:

- لا بأس.. لا بأس يا صديقي فقد سامحتك.

ثم التفت إليه ‹‹كيم›› وقال فجأة:

- لكن لنعلم جميعاً أنك أنت الذي أحرقت الكوخ.

صدم ‹‹أنور›› بهذه الكلمة لكن ‹‹كيم›› استمر في حديثه:

لكن كنت أعلم أنك كنت نائماً حينما كنت سائراً بجمرة في رأس عود، كنت أمامك ولو كنت مستيقضاً لرأيتني، دعوتك بصوت خفيف فلم تجبني فتركتك ولم أمنعك حتى وضعت المشعل تحت كوخ ‹‹آل هاندسون›› ثم رجعت بحركة آلية إلى كوخك.

اتسعت حدقتا ‹‹أنور›› بما يسمع، وسمع أيضاً ‹‹سالماً›› يقول:

- نعم لقد رايتك راجعاً تلك الليلة وأنا أسير على الطريق القريب من كوخك وقد عدت مسرعاً فناديتك فلم تجبني ثم رأيت اللهب بعد دقائق يلتهب في الكوخ.

فقال ‹‹أنور›› موجهاً سؤاله لـ‹‹سالم››:

- ألم تكن أنت الذي وشيت بي؟

فأجابه سريعاً:

- لا والله ... لم أكن أنا الذي فعلت.

فوجه ‹‹أنور›› سؤاله لكيم:

- ولكن لماذا تسمح لي أن أحرق كوخ أصحاب نعمتك؟

- المصالح يا صاحبي، كنت أريد أن يشتد عداء ‹‹آل هاندسون›› لك فيساعدونني عليك، لكنني هذه اللحظة أشعر بالندم فأحببت أن أعترف بخطئي.

نظر إليه ‹‹أنور›› ملياً وقال:

- لا بأس يا ‹‹كيم›› . ثم سكت.

وفي لحظة هدوء وصفاء اعتذر أيضاً ‹‹أنور›› من ‹‹آل هاندسون›› لحرق كوخهم وأخبرهم أنه يعاني من صغره المشي في النوم والقيام ببعض التصرفات اللاواعية دون أن يشعر.

هزّ الجميع رؤوسهم تعبيراً عن قبولهم الاعتذار، ثم ساد الصمت.

وما إن أنقضى اليوم الرابع في الكهف حتى غسلت القلوب من أدرانها. وعذر كل منهم الآخر على ما بدر منه.

ﮋﮊﮋﮊﮋﮊﮋ

وصل الكرب بالجميع مبلغاً يصعب تحمله، وفي الكرب تأتي عند العقلاء الفِكَر. وكلما اشتد الحال على الأذكياء بحثوا عن المخارج، أما البلهاء فإنهم يدورون في مكانهم الذي تعودوا أن يدوروا فيه.. كثيران تدور في الساقية.

كانت عقولهم المرهقة تبدع في استخلاص الأفكار للخروج من هذا المأزق الذي هم فيه. وكان الجميع قد اتفقوا على أن يطلقوا خيالهم الواسع في البحث عن طريقة ناجحة للإبحار بعيداً عن هذه الجزيرة إلى حيث يجدون من ينقذهم في عرض البحر او حدود شواطئ آسيا البعيدة. وكانت التعليمات التي وضعوها لأنفسهم في التفكير تتضمن ألا يستهان بأي فكرة مهما كانت سخيفة أو جنونية بل تطرح وتناقش مع الآخر، مع وجوب احترام رأي الجميع وتفكيرهم واقتراحاتهم مهما كانت بعيدة كل البعد عن المنطق، في طريقة لعصف ذهني متوقد تدفعه الحاجة الملحة.

وبدأوا يفكرون ويفكرون، لكن كانت كل أفكارهم غير قابلة للتطبيق، أو كذلك توصلوا إلى الحكم عليها.

وفي الأخير أرجأوا التفكير واتخاذ القرار إلى وقت آخر.

ضاقت عليهم الجزيرة بما رحبت، وأصبحت أعصابهم أكثر توتراً وأشد حساسية، ولولا أنه كان بعضهم يشجع بعضاً لانهارت قواهم ولتساقط بعضهم من فوق الجبل الذي يسكنونه.

وبينما هم في أسوأ حال إذ سمعوا صوت محرك مركب مقبل عليهم، هو بالتأكيد قارب التجار الذي لا ينتظرون غيره. وهو الذي توقعه ‹‹أنور›› وبنى عليه خطته التي لم أذكرها لك بعد.

وهنا بدأ تنفيذ الخطة الخطيرة التي تفصل بين الحياة والموت، والتي بقدر الله ستقرر مصيرهم.

أخذ ‹‹هاندسون›› بنقديته الوحيدة التي كان يخبئها وانطلق إلى الجبل ليختبئ خلف صخرة تشرف على مرسى المركب المعهود وعلى المكان الذي سيقابل ‹‹أنور›› التجار فيه على اليابسة.

وتبعه وبسرعة هائلة ‹‹سالم›› الذي حمل مسدس ‹‹هاندسون›› وبندقية السهم الهوائية إلى مكان آخر من نفس الجبل.

أما ‹‹كيم›› و‹‹أنور›› فقد استعدا لاستقبال الرجال في السهل حيث يمكن استقبالهم في مكان مكشوف، بقيت السيدة ‹‹هاندسون›› وابنتها في الكهف تراقبان الموقف من بعيد.

أما ‹‹جو›› فإنه اختفى بالقرب من ‹‹سالم›› و‹‹أنور›› للمساعدة عند الحاجة.

وأصبح الجميع في لحظات انتظار حرجه. خفقت فيها القلوب وخارت قوى النسوة من الخوف، واصطكت ركبهما حتى خُيّل إليهما جثث رجالهما قد تناثرت على الشاطىء وهما حولها تندبان وتتضوران جوعاً وهلعاً.

أما الرجال فكانت أعصابهم قد قدت من حديد حيث انتشر في كل ذرة من ذرات أجسادهم شجاعة المصير.

قرب المركب من المكان الذي يقف التجار فيه كل مرة وهو خليج مشقوق تحت سطح الماء.

وهنا بدأت القلوب تصعد من رجفاتها، وتحفز الرجال للملاقاة، واضطرمت قلوبهم غيضاً لتزيد من ثورانها لعلها تصمد عند اللقاء.

لكن الأمر بدا غريبا، فالقارب ليس بالقارب الذي يعهدونه بل هو مركب متوسط الحجم فيه عدد من الرجال .. لم يكن في الحسبان أن يكونوا عليه.

ولما توقف بدا على ظهره رجال سمر الوجوه .. قد لبس كل واحد منهم إزاراً مخططاً وقميصاً أبيض التصقت بأجساد كل منهم، صاح أكثر من واحد من أهل المركب في سكان الجزيرة بلغات لم

يفهمها أحدهم. لكن ‹‹أنور›› قرب منهم وقد توجس منهم خيفة وقال بصوت مرتفع باللغة الانجليزية:

- مرحباً أيها الرجال، ألا يتلكم أحدكم اللغة الانجليزية أو العربية.

رد أحدهم بالإنجليزية بقوله:

- نعم .. نعم ..مرحباً .. كيف حالكم؟

عرف ‹‹أنور›› أنهم ليسوا تجار الأعشاب الذين يعرفهم.. وهكذا ‹‹هاندسون›› والآخرون الذين سمعوا محادثتهم فنزلوا إليهم ليروهم.

قال ‹‹أنور›› للرجال:

- أيها الطيبون نحن هنا في مأزق منذ عدة شهور .. نرجوكم .. نرجوكم أنقذونا..

هبط ثلاثة من أصحاب المركب إلى الماء وخاضوا فيه حتى وصلوا إلى ‹‹أنور›› ومن معه.

كانت فرحة ‹‹أنور›› و‹‹آل هاندسون›› لا توصف.

قال أحد الرجال:

- يبدوا أنكم كثير .. ومركبنا لم تعد تتحمل أكثر مما فيه، فهؤلاء الذين معنا أنقذناهم من الجهة الأخرى من الجزيرة حيث غرقت سفينتهم هناك قبل عدة أيام وهم الآن جياع ومنهكون ولا بد أن نوصلهم إلى الساحل .. ولن نستطيع أن نأخذكم جميعاً معنا .. وخاصة فما يبدو أنكم رفقة يجب أن ترحلوا سوية.

في هذه اللحظات. وبينما الرجل يتحدث سقط ‹‹كيم›› تحت قدمي الرجل يبكي ويخور، ويقول:

- أرجوك أنا لست منهم، أنا هنا في خطر لو أقمت معهم.

ذهل ‹‹أنور›› و‹‹آل هاندسون›› بما فيهم ‹‹نانسي›› التي أقبلت إليهم:

بالغ ‹‹كيم›› في تذلـله وبكائه، حتى خيل للمنقذين أنه يعاني من انهيار عصبي حاد..

فسأل الرجل ‹‹هاندسون›› قائلاً:

- هل نأخذ هذا الرجل معنا، ثم نعود إليكم بعد يومين؟

مطّ ‹‹هاندسون›› شفته وهز كتفه مبديا استغرابه بابتسامه فاترة، لما أقدم عليه ‹‹كيم›› لكنه قال:

- أنت ترى أن معنا نساء وأننا منقطعون عن العالم، ولدينا مركب خلف تلك الأكمه في خليج صغير هناك، وهذا الرجل الذي تراه ويريد المغادرة لوحده هو ربانه وللأسف.

قال الرجل:

- ما هو العطل الذي في مركبكم إذا..

قال ‹‹هاندسون››:

- انقطع الوقود بنا وانتهت الكهرباء التي في ‹‹البطاريات›› وقد قذفت به الأمواج بين الصخور واعتقد أننا لا نستطيع أنا وأصدقائي إخراجه منها.

فرد الرجل:

- المشكلة أن الوقود لدينا محدود، ولعلنا إذا جئنا في المرة القادمة، أقصد بعد يومين أن نأتي بوقود كاف لمركبكم ونساعدكم في إبحاره.

تبسم ‹‹هاندسون›› بمرارة وهو يهز رأسه وقال:

- نشكركم شكراً جزيلاً. ولكن كيف نبحر ولا ربان معنا.

نظر الرجل إلى ‹‹كيم›› الجاثي على ركبتيه، وقال له:

- لماذا لا تنتظر مع أصدقائك حتى نعود .. لتبحر بهم؟!

انخرط ‹‹كيم›› في البكاء وهو يردد.:

- أنا لم أعد أستطيع البقاء .. أنت لا تعرفهم.. لقد كادوا يقتلونني .. لقد أوجعوني ضرباً وقالوا بأنني أنا المتسبب في الوصول بهم إلى هنا إنهم قساة. قساة...وكيف بهم لو ذهبتم الآن وأنا قد طلبت المغادرة معكم، إنهم لن يرحموني. ولعلكم لا تجدوني معهم إذا رجعتم.

نظر الرجل إلى صاحبه وأشار له برأسه أن خذه .. إلى المركب، وقد اظهر على وجهه مسحة احتقار لهذا القبطان الخائر.

قال ‹‹أنور›› للرجل:

- أيها الرجل الشهم .. إن هؤلاء النسوة جياع .. ألا نجد عندكم شيئاً يسد رمقهن.

- بلى...بلى.

ثم صرخ بصوت عال إلى الذين في المركب بكلمات لم يفهمها ‹‹أنور›› و‹‹هاندسون›› فأقبل رجل يخوض الماء وفوق رأسه صندوقاً حتى وضعه عندهم ثم قال الرجل:

- هذه معلبات فيها أغذية أتمنى أن تكفيكم حتى نعود.

قال ‹‹جو›› وقد بدت عليه علامات الخوف:

- ولكننا نخشى أن يأتي بعدكم من يؤذينا..

- آمل ألا يأتي أحد من هؤلاء، فسفن الإنقاذ تجوب المنطقة، والقراصنة هذه الأيام مختبئون بعد الرياح والأمواج التي حصلت، ولكن على كل حال اختبئوا إذا رأيتم غيرنا من بعيد.

ثم ودعوهم وهم يدعون لهم ويشكرونهم.

كان ‹‹هاندسون›› مازال مصدوماً ليس أكثر من السيدة ‹‹هاندسون›› مما فعله كيم فهز ‹‹أنور›› رأسه وهو يضحك:

- لدينا مثل عربي يقول:‹‹ ذيل الكلب أعوج عمره ما يتعدل››

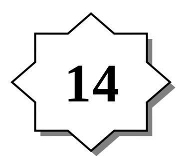
نظر ‹‹هاندسون›› إلى زوجته مؤكداً كلام ‹‹أنور››، لكنها قالت:

- لقاؤنا هناك .. أين يستطيع الهرب منا؟ سوف أعاقبه عقاباً شديداً.

صاح ‹‹هاندسون›› فيها:

- أتمنى ألّا يصل إلى هناك.

ﮩﮪﮩﮪﮩﮪﮩ



مضى يومان كانا أثقل أيام قضوها في تلك الجزيرة، يصارعهم الخوف من عدم مجيء هؤلاء الطيبين مرة أخرى لإنقاذهم، مترقبين وصول تجار الأعشاب الذين لن يجدوا شيئاً أمامهم بعد أن جرفتها السيول.

كان ‹‹سالم›› قد أصبح تابعاً هزيلاً لما أصابه في زواجه الأول، ولموت ‹‹نهاد›› التي ظن يوماً أنه سيتزوجها فقد أحبها من قلبه بعد تطليقه ‹‹سوزان›› التي حطمت قلبه وسلبته إرادته، لكنه هذين اليومين أصبح أكثر نشاطاً وحيوية، بل أكثر انتعاشاً وانبساطاً لمغادرة ‹‹كيم›› بعد أن أظهر لـ‹‹آل هاندسون›› و‹‹سوزان›› بشكل خاص دناءته وغدره.

وفي ضحى اليوم الموعد كان الجميع فوق الصخور على ضفاف الجبل نحو البحر ينتظرون بفارغ الصبر إذ بدت معالم مركب تظهر من الأفق قليلاً قليلاً حتى بدا كله للعيان.

كانت الفرحة عظيمة حينما تبيّن من بعيد أنه مركب عسكري أو لعله لسلاح حدود حكومية، وبالفعل فقد قرب المركب أكثر وصارت القبعات على رؤوس الرجال أكثر وضوحاً.

تعالت صيحاتهم وصاروا يلوحون للمركب من بعيد .. فلما توجه إليهم صاروا يقفزون الصخور هابطين إلى السهل والفرحة تحملهم من عن الأرض.

اصطفوا في السهل ينتظرون المركب يرسوا.

توقف المركب الكبير عن بعد، وأنزلت المرساة ثم انزل مركب صغير هبط عليه أربعة من العسكريين المسلحين .. ووقف على المركب جمع لم يحصي ‹‹أنور›› ومن معه عددهم وقد صوبوا بنادقهم نحوهم ونحو جهات متفرقة من الجزيرة.

لم يستغرب الجميع هذا الوضع فمن الطبيعي أن يتصرف مركب عسكري كهذا في جزيرة مجهولة بالنسبة لهم، وصل القارب الصغير بالضباط الأربعة إلى الشاطئ لكن قارباً آخر فيه ستة من العسكر بعضهم مسلح بالبنادق وآخرون بالمسدسات لحقهم حتى إذا هبطوا على اليابسة توجهوا إلى ‹‹هاندسون›› والبقية.

فلما اقتربوا منهم قال ضابط كبير بصوت جلف وبلغه انجليزية ذات لكنه شرقية:

- هل هناك أحد غيركم؟

فأجابه ‹‹هاندسون››:

- لا يا سيدي لا نعلم أن هناك أحد غيرنا في هذه الجزيرة اللعينة.

قام الضابط بعدّهم ثم قال:

- حسناً، من منكم السيد ‹‹هاندسون››؟

استغرب الجميع لمعرفتهم هذا الاسم:

تقدم ‹‹هاندسون›› مبتسماً فخوراً وقال:

- أنا السيد ‹‹هاندسون›› يا سيدي..

ثم أشار إلى أهله وقال:

- وهذه زوجتي ‹‹نانسي›› وهذا ابني وهذه بنتي. وهذان الرجلان صديقانا.

قال الضابط:

- أنتم معتقلون بتهمة التعاون مع عصابات تصنيع المخدرات وجمع النباتات والفطر المخدرة لهم.

في لحظة أدرك ‹‹أنور›› ومن معه أن تلك العصابات الخبيثة بصورة أو بأخرى وشت بهم كذباً، أو أن الحكومة قد أطبقت على المصنع الذي رفض العمل فيه ووجدوا اسمه، أو أن التحقيق أدرج أسماءهم ضمن الممولين له بالمواد الخام، مع أنه متأكد أنه لا يبيع عليهم أعشاباً مخدره، ثم إن الأعشاب التي يجمعها إنما هي أعشاب طبية.

قال ‹‹أنور››:

- ماذا تقول يا سيدي؟! هذا غير صحيح.

. قال الضابط بصوت قوي:

- لا ينفعكم الإنكار، فنحن نتابعكم منذ مدة، وأعرف أنك الدكتور ‹‹أنور›› أليس كذلك؟

قال ‹‹أنور››:

- نعم .. نعم. لكن أرجو أن تعلم يا سيادة الضابط أننا شرفاء، وأستطيع أن أشرح لك شرحاً وافياً.

قال الضابط بصوت عال:

- على كل أنتم الآن رهن الاعتقال، وقولوا ما بدالكم للسلطات هناك، نحن جئنا للقبض عليكم فقط، ومن أجل سلامتكم آمل أن تسلموا أنفسكم بدون أي مقاومة، فأنتم ترون أنكم محاصرون بقوة لا يستهان بها.

قال ‹‹هاندسون››:

- أرجوك يا حضرة الضابط نحن فرحنا كثيراً بقدومكم وليس لدينا سبب للمقاومة.

لكن مركبنا هناك في حاجة إلى وقود وبعض الإصلاحات، نرجوكم ساعدونا على الأقل في قيادته معكم إلى المكان الذي تريدون، نحن نرحب بأي مكان أخر بعيداً عن هذه الجزيرة التي تكاد تصيبنا بالجنون .

قال الضابط:

- الأوامر التي لدينا هو أن نصطحبكم أنتم فقط ومكبلين بالقيود. أما مركبكم فليس لدينا الأوامر لتشغيله، أو اصطحابه.

رفع ‹‹هاندسون›› صوته قائلاً:

- ولكنني أخشى أن يسرق يا سيدي.

قال الضابط بهدوء.

- لا تخف فلن يأتيه أحد.

وقد تأمر السلطات بسحبه على الميناء.

ثم أشار للجنود فانطلقوا إلى الجميع يكبلون أيديهم خلف ظهورهم. ولم يرحموا حتى النساء، فقد كبلت أيديهما خلف ظهروهما مثل الرجال، ثم اقتيدوا جميعاً إلى القارب ومنه صعدوا إلى المركب المهيب. ورغم هذه الطريقة المهينة التي اقتيدوا بها إلى أن فرحهم بالخروج من الجزيرة كان عارماً يهوّن عليهم الشعور بالمهانة.

ജ൬ജ൬ജ൬ജ

وصلوا إلى قاعدة عسكرية واقتيد الجميع إلى مبنى منعزل وهم ينظرون يمنة ويسرة فرحين أنهم رأوا أشياء كاد اليأس أن يمحوها من ذاكرتهم، مبان وسيارات ودراجات نارية، وغير ذلك مما

ظنوا أنهم لن يروه مرة أخرى بقية حياتهم في أحايين كثيرة حينما يضرب اليأس أطنابه على أرواحهم.

أدخلوا زنزانات معزولة إلا ‹‹أنور›› فقد اقتيد مباشرة إلى حجرة في نهاية المبنى حيث وجد رجلا ابيض شديد سواد الشعر لكن البياض يتبدى في منابت شاربه الكث الذي اختلط سواده ببياض شيبه، أنيق اللباس.

رحب بـ‹‹أنور›› وقال:

- اجلس يا دكتور ‹‹أنور›› يبدو أن رحلة البحر الطويلة أرهقتكم كثيراً!

وقف ‹‹أنور›› مكانه ورد قائلاً:

- نشكركم سيدي لقد كان إنقاذكم لنا بمثابة حياة جديدة.

- دكتور ‹‹أنور›› ... أرجو أن تساعدني في توفير الوقت عليّ وعليكم.. فكما أعلم أنك عالم له مكانة مرموقة، ولن تبخل عليّ ولا على نفسك في الوصول إلى الحقيقة في وقت قصير يسهل على كلينا الجهد والراحة و ......

قاطعة ‹‹أنور›› قائلا:

- سيدي .. أنا في الحقيقة مرهق جدا ... وليس لدي ما أخفيه من أجل أن ارتاح أنا أيضا.

لم يكن ذلك المحقق هو الوحيد الذي باشر القضية فقد خصص عدد من المحققين ذوي الخبرة العالية في مكافحة المخدرات.. مما أوصلهم إلى الحقيقة بسهولة في اليومين الأولين.

في نهاية اليوم الثاني أفرج عن الجميع لكنهم أخذوا إلى أحد الفنادق في البلدة القريبة من القاعدة العسكرية التي تم التحقيق فيها، وقد وجدوا في غرفهم ملابس جديدة ليبدلوا بها تلك الملابس التي كادت تيبس على ظهورهم والتي أعانتهم في إنهاء أزمتهم من خلال إرسال نفحات نتنة إلى المحققين تفيدهم أن هؤلاء يعانون من العزلة والفقر والحاجة والقذارة أيضا.

والحل للتخلص من معاناة شم رائحتهم التي أزكمت أنوفهم هو التعجيل في الوصول إلى الحقيقة.

وكانت تلك الليلة أهنأ وأحسن ليلة عرفوها في حياتهم، وما إن اغتسلوا ولبسوا ثياب العافية حتى انهدمت أجسادهم على الأسرة وغطوا في نوم عميق إلى اليوم الثالث .. لم يستيقظ إلا ‹‹أنور›› لأداء صلواته جمعاً وقصراً ثم يعود للنوم من جديد.. وربما النهوض لأكل لقيمات قليلة ثم يعودون إلى النوم.

وفي اليوم الثالث وبعد أن لبسوا أفضل ما يمكن لبسه في مثل هذه الحالة وجدوا سيارتين فارهتين تقفان عند باب الفندق تقلهم إلى مبنى فخم حيث استقبلهم عدد من كبار الشخصيات.

كان الوضع غريباً بالنسبة لهم فلم يخبرهم أحد بسبب هذا الاهتمام بعد ذلك التحقيق وبعض الإهانة، إلا أنهم أدركوا أخيراً أنهم قد صدّقوا أن ‹‹هاندسون›› هو ذلك الثري ورجل الأعمال المعروف.. وأن ‹‹أنور›› و‹‹سالماً›› ضحية مصنع مخدرات حقيقي لكنهما لا يعملان له.

وبالفعل فوجئوا في استقبالهم مسئولاً رفيع المستوى من سفارة بلد ‹‹هاندسون›› أما ‹‹أنور›› وصاحبه فلم ولن يتوقعا أن يجدا مثله، لأن بلديهما وما صاقبهما لا يعترفون بمثل هذا الترف في أي مكان في العالم.

كان الحفل دوامة لها طنين في الآذان وتشويش في الرأس، فقد كانت الشهور الطويلة التي قضوها في الجزيرة كفيلة بأن تربك كل التركيبات المقارنة في أدمغتهم.

وبينما هم واقفون يراقبون الناس كانوا يقدمون الشكر بعد كل مصافحة وتهنئة. إذ طلب أحد المضيفين من الجميع الجلوس ... للاستماع إلى كلمة المسؤول.

قدم المسؤول الأنيق ترحيبه واعتذار حكومته عما لحق بـ‹‹هاندسون›› ومرافقيه من أذى. وأسفه عما لاقاه الجميع من حياة قاسية في تلك الجزيرة النائية جداً.. وتمنى لهم إقامة طيبة في ضيافة الحكومة.

كان الجميع يعيشون لحظات سعيدة تفوق استيعابهم حتى كان بعضهم ما زال يعيش آلام عيش الجزيرة ويظن أنه في حلم جميل سيفيق منه بعد لحظات.

قام ‹‹هاندسون›› وهو يصلح من بدلته الواسعة، واتجه إلى المنصة وألقى كلمته. وكان أول كلمات الشكر موجهة إلى ‹‹أنور›› الذي استضافهم وقدم كل ما لديه لتخفيف وحشة الغربة القاسية التي تجرعها هو وبقية عائلته، وقد تعالت التصفيقات وهو يعدد مناقبه وأفضاله .. لكن عبارات الحزن طغت على نبراته حينما أبدى أسفه الشديد على وفاة أخته الدكتورة ‹‹نهاد›› التي كانت نعم الصديقة لأسرته، ورغم سحابة الحزن التي ظللت على نفس ‹‹أنور›› إلا أنه استطاع أن يهضم آلامه ليشارك الحفل. وقد بالغ ‹‹هاندسون›› في شكر مضيفيه مقدراً ما قاموا به من تحقيق للوصول إلى الحقيقة في سبيل محاربة آفة المخدرات التي تفتك بالشعوب، والتي كادت أن تهلك ابنته ‹‹سوزان›› لولا أنها تداركت نفسها منذ سنوات.

وفي النهاية طالب ‹‹هاندسون›› المسئولين بكشف سبب الاتهام الذي وجه لهم، فهم لم يعرفوا حتى تلك اللحظة لماذا اتهموا، وما الذي دفع بالسلطات أن توجه هذه التهمة لهم بدلاً من إنقاذهم؟

كان ‹‹هاندسون›› رجل أعمال متحدث، وكان لحديثه أثر عميق في نفس ‹‹أنور›› مما زاد إعجابه به، فقد كان لا يرى منه في الجزيرة إلا خاضعاً لزوجته أو مجترا لآلامه وقهره وعجزة.. فأيقن أن لكل نبات تربة ومناخاً. وأن الرجل في مكان قد لا ينفع في مكان أو زمان آخر، ربما يكون فلتة من فلتات زمانه.. ومع هذا فالمال ‹‹يسلطن›› صاحبه ولولا مال ‹‹آل هاندسون›› لما رأى ما رأى من اهتمام واعتذار وأسف.

وفي نهاية الحفل توجه الجميع إلى مائدة الطعام حتى إذا انتهوا من تناول الطعام طلب المسؤول ‹‹هاندسون›› وزوجته و‹‹أنور›› و‹‹سالماً›› إلى مكتب جانبي فاتجهوا جميعاً إليه.

جلسوا على طاولة مستطيلة. وبعضهم يلتفت إلى البعض حتى إذا استقر بهم المكان.. قال المسؤول:

- الحقيقة أن الذي وشى بكم هو واحد منكم .. وهو خادمكم المدعو ‹‹كيم›› ولكن التحقيق والحقائق المتوفرة لدينا عن فقدان مركبكم أسرعت في كشف الحقيقة، وتبين لنا أن ‹‹كيم›› الذي تم إنقاذه من قبل جماعة خيرية كانت تقوم بإنقاذ المتضررين من الأمواج الأخيرة، كان يتحدث مع الركاب بأنكم الممولون الأساسيون لأكبر مصنع للمخدرات في آسيا... وأنه كان قد أجبر للعمل معكم وأنكم كنتم تستخدمونه لهذه الأغراض .. ولما قبضنا عليه أكد ما قاله، لكننا بعد أن جئنا بكم إلى هنا وقابلناه بالحقائق التي توصلنا إليها اعتذر وقال:

- لقد كان هدفي أن تسارعوا في إنقاذهم.

نظر ‹‹هاندسون›› إلى زوجته وقد احتقن وجهه غضباً لكنها أخذت تهز رأسها لتهوّن من الأمر. ثم قالت للمسؤول:

- حسنا.... وأين هو؟

- هو في الخارج يا سيدتي... ولو قمتم جميعاً بالتنازل عنه فإنه لا مانع لدينا أن نطلق سراحه من أجلكم.

قالت:

- أرجوا أن تدخلوه.

رفع الرجل سماعة الهاتف وطلب إحضار ‹‹كيم›› الذي يبدو أنه يقبع في أحد المكاتب المجاورة.

كان ‹‹أنور›› و‹‹سالم›› يغليان حنقاً على هذا اللئيم الذي أحسنوا إليه طويلاً ثم لم يكفه شيئاً حتى أساء إلى أرباب نعمته فاتهمهم بالعمل في المخدرات ... وقد عزم كل منهما في نفسه ألا يعفو عنه لينال جزاءه الذي يستحقه..

أدخل ‹‹كيم›› ويداه مكبلتان بالحديد، حتى رأى السيدة ‹‹نانسي›› انقض ـ كعادته- إلى ركبتها يقبلها ويتذلل ويعتذر.... ومن كلامه:

- اقسم لكم يا سيدتي أني لم افعل ذلك إلا من أجل أن يعجلوا في إنقاذكم.

سارع ‹‹أنور›› بالقول:

- لو كان مقصدك كذلك يا ‹‹كيم›› لسارعت في إبلاغ السلطات عن السيد ‹‹هاندسون›› أو على الأقل قنصلية بلدك التي بالتأكيد ستسارع بإرسال طائرات مروحية لإنقاذنا .. لكنك ....

رمته ‹‹نانسي›› بنظره قاسية، فأشار إليه ‹‹هاندسون›› بالسكوت.. وليس أسرع من السكوت عندما يكون صاحب الكلام ضعيفاً.

قال ‹‹هاندسون›› للمسؤول بعد أن تبادل النظرات مع زوجته:

- نحن متنازلون يا سيدي عن ‹‹كيم›› فهو إنسان غبي ويحتاج أحيانا للرعاية.. ومتأكدون أن مقصده كان شريفاً.

ذهل ‹‹أنور›› وصاحبه. لكن المسؤول التفت إليهما وقال:

- وأنتما ماذا تريان؟

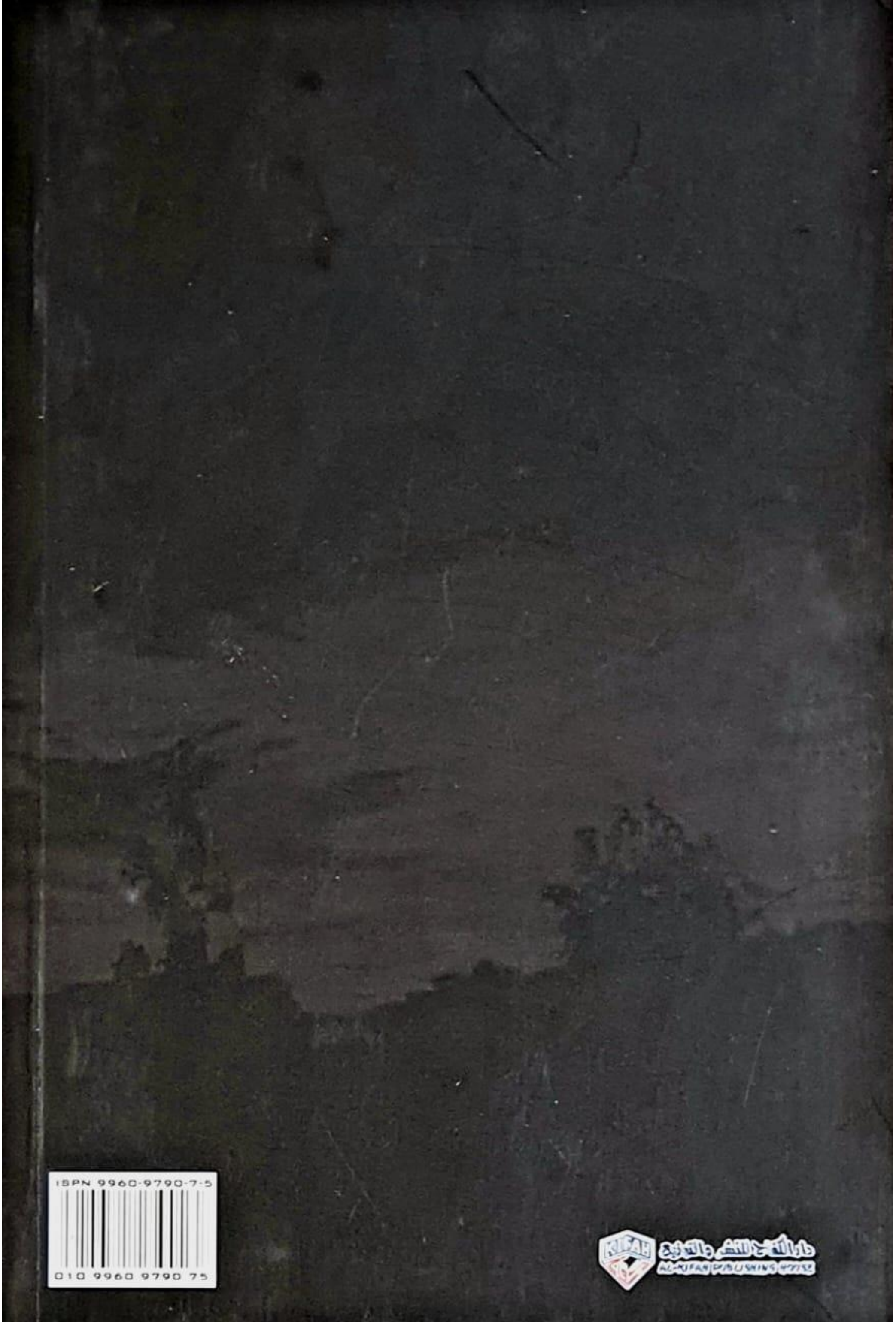
قالا بصوت واحد..

- نحن لن نتنازل عنه..

نظر إليهما ‹‹هاندسون›› متظاهراً بابتسامه حازمة، ثم قال لهما:

- بل أنتما متنازلان أيها السيدان ..... متنازلان أليس كذلك؟

ﮩﮪﮩﮪﮩﮪﮩ



ISPN 9960-9790-7-5
010 9960 9790 75
KIFAH
دار الكفاح للنشر والتوزيع
AL-KIFAH PUBLISHING HOUSE